فنون الشعر

كانت الحياة الأدبية قوية مزدهرة فى العصر الفاطمى. واستمر تيار هذه الحياة بعد انقراض هذا العصر الفاطمى بنفس القوة التى كان يسير عليها من قبل، فالتغيير السياسى وزوال دولة وتأسيس أخرى لم يضعف الفن الأدبى فى مصر، بل ربما استفاد الأدب من هذا التغيير السياسى فوائد لم يكن ليحققها لو استمر الفاطميون على ما كانوا عليه. وكان كثير من فحول أدباء وشعراء العصر الأيوبى قد شاهدوا أواخر العصر الفاطمى وأسهم كثير منهم فى الحياة الأدبية، وعرفوا فنونها واتجاهاتها، فساروا فى العصر الأيوبى متأثرين بما كانوا عليه حتى إن مصطلحات العقائد الفاطمية ظلت فى شعر المدح والتصوف على نحو ما رأيناه فى البحث الأول والثانى من هذا الكتاب.

وكما كان الشعراء الفاطميون يخرجون إلى المتنزهات والبساتين كذلك كان يفعل شعراء الأيوبيين، وكما كان التنافس شديدا بين شعراء العصر السابق. كذلك كان التنافس قويا عنيفا بين شعراء عصرنا هذا، وظهرت فى هذا العصر الأيوبى بعض اصطلاحات فنية فى تنافس هؤلاء الشعراء، هذه الاصطلاحات هى فى حقيقة الأمر قديمة معروفة منذ عهد بعيد ولكن ظهرت فى العصر الأيوبى بصورة لافتة، فمثلا كان الشعراء قديما يطلبون من بعضهم بعضا إجازة نصف بيت أو بيت من الشعر أو أكثر لإظهار مهارتهم الفنية أو قل هى لون من ألوان الرياضة الذهنية بين الشعراء.

أما فى العصر الأيوبى فقد حدد لذلك مدلولات تعارف عليها الشعرء والنقاد، فقسموا الأجازة مثلا إلى: إجازة شاعر لمعاصره أو إجازة الشاعر لشاعر قديم.

والإجازة كما تعرف قديما هى أن ينظم الشاعر على شعر غيره فى معناه ما يكون به تمامه وكماله. فمن ذلك ما رواه على بن ظافر أنه اجتمع هو والقاضى الأعز أبو الحسن على بن المؤيد الغسانى يوما بالرصد فرأيا شعاع الأصيل فوق بياض الماء فقال ابن ظافر:

أذكت الشمس على الماء لهب

وطلب من الأعز إجازة هذا القصيد فقال:

فكست فضته منها ذهب(١)

---

(١) ابن ظافر الأزدى: بدائع البداية ص ٤٠.

ومن ذلك أيضا أن ابن الساعاتى كان فى مجلس سماع عند بعض الرؤساء فغنى مغن قبيح الصوت فقال بعض الحاضرين:

من منصفى ممن إذا ... ما ناح نُحت لقبح نغمه

وطلب إلى ابن الساعاتى إجازة هذا البيت فقال:

هو خارج وقت الغناء ... وداخل فى رحم أمه[1]

ويحدثنا على بن ظافر أيضا أنه قال: بتنا ليلة على المقياس عند مبالغة النيل فى نقصه واحتراقه، وانفراجه عما لم يزل مستورا من أرضه ومفرقه، والمراكب قد انتظمت فى لبته، وركدت بالإرساء فوق لجته، وأحاطت به إحاطة المحيط بنقطته، وسفهاء الرياح تعبث بها حتى كادت تذهب بوقارها، وأجسادها قد لبست لفقد الماء حداد قارها، وهى فى أوكارها من المراسى مزمومة، وأجنحة قلوعها لعارض الليل مضمومة، فقلت بديها:

أو ما ترى المقياس قد حفت به ... سود المراكب فوق ظهر اللجة
يسمو وقد حفت به كقلادة ... سبجية فى لبة فضية

واستجزت ابن المؤيد فقال:

وكأنه حصن عليه عسكر ... للزنج لف بنوده للحملة[2]

وهكذا عاد شعراء مصر إلى ما كان عليه الشعراء فى مصر والأقطار العربية الأخرى من هذا اللون من الرياضة الذهنية، وإنشاد أبيات من الشعر على البديه كلما طلب إليهم ذلك.

ومن هذه الرياضة لون عرف بالتمليط.

عبّر ابن ظافر عنه بقوله: هو أن يجتمع شاعران فصاعدا على تجريد أفكارهم، وتجريب خواطرهم فى العمل فى معنى واحد[3] فمن التمليط ما يكون بين شاعرين. ومنه ما يكون بين شعراء. ومنه ما يكون بقسيم لقسيم. ومنه ما يكون بيت لبيت. ومنه ما يكون بيتين لبيتين. والفرق بينه وبين الإجازة أن التمليط يتفق فيه الشعراء قبل العمل. أو يندبون لذلك وتتكرر بينهم المناوبة. وهذه شروط ليست من شروط الإجازة.

(١) نفس المرجع السابق ص ٥٤.
(٢) نفس المرجع السابق ص ٦٦.
(٣) نفس المرجع السابق ص ٩٢.

ومن التمليط لون يسمى الماتنة، وهو ما يقع بين شاعرين بقسيم لقسيم. «والماتنة لغة: المماطلة والمباعدة فى الغاية». ومثال ذلك أن شهاب الدين يعقوب ابن أخت الوزير انفرد يوما ببوصير بالفقيه رضى الدين أبى إسحاق، وكان فى خدمة الوزير نجم الدين. فجلس إليهما غلام من أولاد بعض الرؤساء. فقال الفقيه الرضى:

لله يـوم مـضـى بـبـوصـيـر

قال الشهاب:

والـعـيـش صفو بـغـيـر تـكـديـر

فقال الرضى:

نـديـمـنـا فـيـه شـادن غـنـج

فقال الشهاب:

مـكـتـحـل جـفـنـه بـتـفـتـيـر

ويقول ابن ظافر: جلست مع الشهاب يعقوب يوما بالجامع الأنور بالقاهرة لانتظار الجمعة، وكان يجلس بالقرب من مكاننا صبى وضىء نهب وجهه وشعره من البدر نوره، ومن الليل ديجوره، واغتصب طرفه وعطفه من الظبى كحله ومن الغصن ميله ينعت بالشمس، فتأخر حضوره يوما، فتعاطينا القول فى غيبته فقلت:

أفدى الـذى غـاب فـغـاب الـسـرور

قال الشهاب:

واتـسـع الـهـم بـضـيـق الـصـدور

فقلت:

وأظـلـم الأنـور مـن بـعـده

فقال الشهاب:

ولـيـس بـعـد الـشـمـس لـلأفـق نـور[1]

(١) الرجع السابق: ص ١٠١.

ومن التمليط ما يقع بين شاعرين ببيت لبيت، ويسمى هذا النوع الإنقاذ، مثال ذلك أن اجتمع ابن المنجم الشاعر، وأبو الحسن الذروى، والفقيه الأديب أبو الفضل المنبوذ بطيرى فى منزل الأديب عبد المنعم الجزيرى وجلسوا للحديث فدخل عليهم أبو الربيع سليمان ابن تنين الطجان وذكر أنه رأى رجلا مصلوبا بأعلى الجسر، وطعن بعد صلبه، فاقترح الوجيه الذروى أن يصنعوا فى هذا شيئا، فاقترح النجم أن يكون الإنقاذ بين أبى الفضل وأبى الربيع، وأن تكون القافية على حرف الذال، فقال أبو الفضل فى الحال:

ومفجع تخذ الجذوع مطية ... فتقطعت لركوبها أفخاذه

وأطال أبو الربيع التفكر، وافتضح فى تمادى التأهل، فدس إليه ابن المنجم رقعة صغيرة فيها:

وبدا لسن الرمح فيه نفاذة ... أخنى على أفلاذه فولاذه

وناولها له بحيث فطنت الجماعة وتغافلوا، وخفى الأمر على أبى الفضل طيرى لسوء بصره؛ فقال: بيتى خير من هذا البيت. وأكثر الصياح والجلبة، فقال له ابن الذروى: دع عنك هذا القول ألست القائل فى بيتك «تخذ الجذوع» فهذا صلب على جذع أو مائة، وقلت «أفخاذه» فله فخذان أو عشرة، وأوحى إليه بالقصة؛ فأقصر عن الكلام، ثم التفت ابن الذروى إلى سليمان الطحان وقال له: قد ثبت اليوم عملك للشعر فانصرف وقد ألزموه بعمل دعوة سرورا بذلك[1].

وقال القاضى الأعز بن المؤيد: تسايرت أنا والقاضى المخلص أبو العباس أحمد بن عوف بشاطئ خليج الإسكندرية من جهة القنطرة المعروفة بقنطرة السوارى، وقد رقصت أشجاره على غناء أطياره، وملأ لها ساقى الغمام كؤوس جلناره، فبينما نحن نتناشد من نفيس رقيق الأشعار ونتعاطى من كؤوس رحيق الأخبار ونتعجب من سماء ذلك الماء كيف خلت من البدور، ومن نجوم تلك الأزهار مع طلوع شمس النهار كيف لا تغور إذ بجوارٍ هناك جوار، وبدور من قبل السواد سوار، فقلت:

لله أى بدور ... من السوار سوارى

فقال المخلص:

من كل هيفاء جرسى الـ ... ـوشاح خرسى السوار

(١) نفس المصدر السابق: ص ١٠٧.

فقلت:

لاحت فحلت وحلت قلبي وعقد اصطباري

فقال:

تنوب فرعا ووجها عن الدجى والنهار

فقلت:

فناظراها وقلبي ما بين راض وضار

فقال:

وخدها وفؤادي من جلنار ونار

فقلت:

تحكى الغزالة في بهـ جة وحسن قنار

فقال:

والظبي في حسن جيد ومقله ونفار[1]

ومن التمليط ما كان يقع بين ثلاثة من الشعراء مثال ذلك ما ذكره ابن ظافر إذ يقول:

مضيت أنا وشهاب الدين يعقوب والقاضى الأعز بن المؤيد رحمه الله فى جماعة من أصحابنا إلى الدير المعروف بالقصير إيثارا لنظر تلك الآثار فلما تنزهنا فى حسن منظره وقضينا الوطر من نظره لتعاطينا القول فيه، جريا على عادة خلعاء البلغاء وظرفاء الأدباء ومجان الشعراء الذين نبذوا الوقار بالعراء فقطعوا طريق الأعمار بطريق الأغمار وضيعوا العين والعقار فى تحصيل العين والعقار. فقال الشهاب:

سقى الله يومي بدير القصير قصير العزالى طويل الذيول
محل إذا لاح لى لم أقف بصحبى على حومل فالدخول

فقلت:

فكم فيه من قمر فى دجى على غصن فى كثيب مهيل
بلحظ صحيح وجفن سقيم وروح خفيف وردف ثقيل

(١) نفس المرجع السابق ص ١٠٨.

فقال الأعز:

قطعت به العيش مع فتية ... صباح الوجوه كرام الأصول

بكل كريم قصير المراء ... حاز المعالى بباع طويل

فقال الشهاب:

أذاقه سل سيف المدام ... فكم من سليب وكم من قتيل

فقال الأعز:

وكم من خليع كريم الفعال ... يجدد بالجود غيظ البخيل

فقلت:

يوافيه ذا ذهب جامد ... فيغنيه فى دائب للشمول

ثم صنع الشهاب فيه على غير هذا الروى والوزن فقال:

على عمر القصير قصرت عمرى ... وصنعت خلاعتى وأزلت وقرى

فقال الأعز:

ولم أسمع لعمرى قول زيد ... إذا ما لامنى أو قول عمرو

فقلت:

ظفرنا فيه من شفة وكأس ... لمشروبين من ريق وخمر

فقال الشهاب:

ودافعنا يقين الدين فيه ... بمظنونين من خمر وخضر

فقال الأعز:

كسوت به الكئوس البيض حمرا ... من القمص اشتريناها بصفر

فقلت:

وظلت بمارق للهو أتلو ... بهز البيض فيه عناق سمر[1]

كانت هذه الرياضة الذهنية من عوامل رقى فن الشعر فى ذلك العصر فمحاولة كل شاعر أن يثبت مقدرته على هذه الألوان واجتماع الشعراء فى زيارة أماكن النزهة والتمتع

(١) المرجع السابق ص ١٢٢.

بجمال الطبيعة، ومطالبة بعضهم بعضا فى أن ينشـدوا فى موضوع بعينه كان ولا شـك له أثـره فـى هذه النهضة الفنية التى نراها فى عصـر الأيوبيين بالرغم مما ذكرناه من أن هذه الرياضة كانت معروفة عند شعراء العرب فى غير مصر وفى غير هذا العصر.

أسـهم شـعراء الأيوبيين فى الموضوعات التى عرفها الشعر العربى منذ أقدم عصوره من مـدح وهجاء وغـزل وخمريات إلى غير ذلك من موضوعات الشـعر. ولكننـا نرى فى هذا العصـر بعض الفنون التى أعتبرهـا جديدة كل الجدّة فى الأدب العربى، إذ لم يعرض لها شـعراء العرب ولم تظهر إلا فى عصرنا هذا، وقد ذكرنا فى حديث سـابق من هذا الكتاب أن الحشيشيات ظهرت لأول مرة فى العصر الأيوبى، وهو فن جديد لم يطرقه الشعراء من قبل. كما تحدثنا عن الشـعور بالوحدة الإسـلامية، وكان حديث الشـعراء فى هذا العصر جديدا أيضا، وهو أثر من آثار فكرة نور الدين زنكى وصلاح الدين الأيوبى فى توحيد البلاد الإسلامية وحدة تجعل المسلمين قوة أمام أعدائهم المستعمرين.

ونسـتطيع الآن أن نضيـف إلى هذه الفنـون الجديدة فنا آخر هو أثـر من ظهور عنصر الأتراك فى بلادنا المصرية، فأول ما نراه من ذلك الإشادة بعنصر الأتراك وقوة الترك وأنهم استطاعوا أن يهزموا كل من يقف فى طريقهم ففى قصيدة لابن سناء الملك يقول:

بـدولـة الـترك عـزّت مـلـة الـعـرب ... وبـابـن أيـوب ذلـت شيـعـة الـصـلـب

ويقول العماد الأصفهانى فى قصيدة له:

لـن تـلـه عـن بـاقـى الـبلاد وإنـمـا ... ألـهـاك فـرض الـغـزو عـن هـمـدان
لـلـروم والإفـرنـج مـنـك مـصـائـب ... بـالـتـرك والأكـراد والـعـربـان

ويقول ابن المجاور:

جـاءت جـنـود الله تـطـلـب ثـأرهـا ... وصـدورهـا عـمـا قـليـل تـشـتـفى
فـانـهـض بـهـا وتـقـاض حـقـك موقـنـا ... أن الإلـه بـمـا تـؤمـلـه حـفـى
هـم فـتـيـة الأتـراك كـل مـجـفـجـف ... يـغـشى الكريهة فوق كل مـجـفـجـف
قـوم يـخـوضـون الـحـمام شجاعـة ... لا يـنـظـرون إلـيـه مـن طـرف خـفى
إن صـبـحـوا الأعـداء فى أوطـانـهـم ... تـركـوا ديـارهـم كـقـاع صـفـصـف
أنـت اصـطـفـيـتـهـم لـنـصـرة ديـنـنـا ... لله درُّ الـمـصـطـفَـى والـمـصـطفِى

ويقول النظام المصرى فى شجاعة الترك:

ومن ذا يطيق الترك فى الحرب إنهم ... بنوها وكل الناس زور وباطل
حماة كماة كالضراغم، خيلهم ... معاقلهم، والخيل نعم المعاقل

ويقول ابن النبيه:

إياك والأتراك إن لبعضهم ... أشخاص غزلان وفعل أسود

فن الغزل

وكما مدح شعراء مصر الأتراك فقد تغزلوا بهم ومن العجيب أن شعراء مصر خالفوا شعراء العرب فى الغزل بالعيون الواسعة التى تشبه عيون البقر الوحشى أو عيون الجآزر، وتغزلوا بعيون الأتراك الضيقة فالشاعر ابن النبيه يقول:

سواى فى سلوانه يطمع ... فعنفوا إن شئتموا أو دعوا
أوضحتم الرشد فمن يهتدى ... وقلتم الحق فمن يسمع
بى ضيق العين وإن أطنبوا ... فى الحدق النجل وإن أوسعوا(١)

فالشاعر هنا يتحدث عن محبوبه ذى العيون الضيقة بالرغم من حديث الشعراء السابقين وأطنابهم فى وصف الحدث النجل والعيون الواسعة. فهو لا يرضى إلا بالعيون الضيقة عيون الأتراك، وهو يكرر هذا المعنى فى أشعاره ويكثر من ذكر هذه العيون الضيقة ثم نراه يصطنع فى شعره هذا المعنى الذى لا يزال يجرى بين المصريين إلى الآن حتى ذهب مذهب المثل وهو أن «ضيق العين دليل البخل» فابن النبيه يقول مثلا:

أمانا أيها القمر المطل ... فمن جفنيك أسياف تسل
يزيد جمال وجهك كل يوم ... ولى جسد يذوب ويضمحل
وما عرف السقام طريق جسمى ... ولكن دل من أهوى يدل
يميل بطرفه التركى عنى ... صدقتم إن ضيق العين بخل(٢)

فالشاعر يتغزل بعيون الأتراك الضيقة فإذا صد عنه محبوبه تذكر ما يجرى على ألسنة الناس من أن ضيق العين تدل على البخل. ويعود ابن النبيه مرة أخرى إلى التحدث عن العيون الضيقة وما تدل عليه من البخل فيقول:

---

(١) الديوان ص ١٧.

(٢) الديوان ص ٤٣.

ويـح قـلـب الـمـحـب مـاذا يـقـاسـى ... كـل قـلـب عـلـيـه كـالـصـخـر قـاسـى
يـا جـفـونـى أيـن الـدمـوع فـقـد أحـ ... ـرق قـلـبـى تـوقـد الأنـفـاس
جـد وجـدى فـى حـب لاه وأودى ... بـفـؤادى تـذكـاره وهـو نـاسـى
من بني الترك لـين العطف قاسي القلـ ... ـب سـهـل الـخـداع صـعـب الـمـراس
ضـيـق الـعـيـن وهـى من صـفـة الـبـخـ ... ـل فـإن جـاد كـان ضـد الـقـيـاس[1]

ويتغزل بالترك مرة أخرى فيقول:

تـعـالـى الله مـا أحـسـن ... شـقـيـقـا حـف بـالـسـوسـن
خـدود لـثـمـهـا يـبـرى ... مـن الأسـقـام لـو أمـكـن
غـزال ضـيـق الأجـفـا ... ن يـحـكـى الـرشـا الأعـيـن
لـه قـلـب وأعـطـاف ... فـمـا أقـسـى ومـا ألـيـن[2]

ويتغزل ابن مطروح بأعين الترك فيقول:

حـذار سـيـوف الهند مـن أعيـن الترك ... فـمـا شـهـرت إلا لـتـؤذن بـالـفـتـك

وهكذا كان التغزل بالأتراك وبالعيون التركية الضيقة من موضوعات الشعر فى هذا العصر، وجاء الشعراء بعد العصر الذى ندرسه فأكثروا من الحديث عن العيون الضيقة، فقد فتح شعراء العصر الأيوبى هذا الباب لمن جاء بعدهم، حتى خيل إلينا أن شعراء مصر فى عصر المماليك والعثمانيين نسوا العيون الواسعة، أو أنهم لم يتذكروا ما جاء فى الشعر العربى منذ العصر الجاهلى من تشبيهات واستعارات وكنايات الشعراء عن العيون. ولكن لكل عصر فتنته وبدعته.

ليس معنى ذلك أن شعراء العصر الأيوبى لم يذكروا فى غزلهم العيون الواسعة، فإنهم تحدثوا عنها فى غزلهم، وكان غزلهم هو استمرار للغزل الذى كان فى العصر الفاطمى غير أن غزل العصر الفاطمى كان متأثرا بالترف الفاطمى بينما كان غزل الأيوبيين فى أكثره عفيفا ليس به الفحش الذى كان فى العصر السابق، حقيقة وجد فى عصرنا مثل ابن المرصص المتوفى سنة ٦٣٨ هـ الذى كان يقول:

تـنـقـل فـلـذات الـهـوى فـى الـتـنـقـل ... ورد كـل صـاف لا تـقـف عـنـد مـنـهـل

---

(١) شرحه ص ٤٠.

(٢) الديوان ص ٧.

وإن سار من تهوى فسر عن غرامه ... ولا ترسلن دمعا على مترحل
ولا تسكنن الوجد فى دار غربة ... ولا تجعل المحبوب عنك بمعزل
وكن آمرا إن كان لابد من هوى ... فول من الأحباب من شئت واعزل
حديث الهوى مثل الحديث حقيقة ... فآخر حب ناسخ حكم أول
ولا تسمعن قول امرىء القيس المـ ... ـضلل من ذا يهتدى بمضلل
فلا خدر إلا وهو خدر عنيزة ... ولا دار إلا وهى دارة جلجل
وفى الأرض أحباب وفيها منازل ... فلا تبك من ذكرى حبيب ومنزل[1]

فالشاعر هنا يتهكم بهؤلاء الذين يتخذون محبوبة واحدة ويبكون إذا رحلت عنهم. فعلى الرجل أن يكون حاكما على قلبه يحب من يشاء ويهجر من يشاء. ثم يتهكم بامرئ القيس الذى جعل غزله وقفا على عنيزة. ووقف باكيا على دارة جلجل. فإن من مبادئ شاعرنا المصرى أن يتنقل فى الهوى. ومهما يكن من الأمر فإن شعراء مصر جميعا أنشدوا فى الغزل حتى هؤلاء الذين عرفوا بالتزام الوقار فى حياتهم الخاصة وبعدوا عن مجالس اللهو أمثال القاضى الفاضل. إذ لم يكن يتظاهر بما كان يتظاهر به أصحاب الدواوين فى عصره من الميل إلى الغلمان ومعاقرة بنت الحان. وكان ينكر على أصدقائه ذلك. ويروى للتدليل على ذلك أن السلطان صلاح الدين قال يوما للقاضى الفاضل: لنا مدة لم نر فيها العماد فلعله ضعيف. امض إلى داره وتفقد أحواله. فلما دخل الفاضل دار العماد وجد أشياء أنكرها فى نفسه مثل آثار مجلس أنس وطيب ورائحة خمر وآلات طرب فأنشده.

ما ناصحتك خبايا الود من رجل ... ما لم ينلك بمكروه من العذل
محبتى فيك تأبى أن تسامحنى ... بأن أراك على شىء من الزلل[2]

فهذه القصة تدل على أن القاضى الفاضل لم يكن بالرجل الذى تستهويه النساء أو يتبع الغلمان والسماع. وكان ينكر على أصدقائه ذلك. ومع هذا كله فله غزل بالمذكر مثل قوله:

شرخ الشباب بحبكم أفنيته ... والعمر فى كلف بكم قضيته
وأنا الذى لو مر بى من نحوكم ... داع وكنت بحضرتى لبّيته

(١) ابن سعيد: المغرب ص ٢٨٠.
(٢) الصفدى: الغيث ج ١ ص ٢١٤٣.

كيف التعرض للسلو وحبكم حب بأيام الشباب شريته
لله داء في الفؤاد أجنه يزداد نكسا كلما داويته
قالوا حبيبك في التجني مسرف قاس على العشاق قلت فدتيه
أروم من كلفي عليه تخلصا لا والذي بطحاء مكة بيته
ولو استطعت بكل اسم في الورى من لذة الذكرى به سميته[1]

فالقاضي الفاضل في هذه الأبيات يكن حبا دفينا لازمه منذ شبابه ولا يستطيع أن يسلو عنه فقد تمكن الحب من قلبه ولم يجد له دواء بالرغم من تجني محبوبه وقساوته على عاشقه فالقاضي الفاضل يتغزل غزلا بعيدا عن فحش القول أو وصف أعضاء المحبوب. إنما اكتفى بالناحية النفسية لحالته. وتغزل القاضي الفاضل بالمؤنث مثل قوله:

وحياة حبك ما نسيت عهدا لحبك ما حييت
وإذا رضيت بما لقيت فقد نعمت بما شقيت
ولقد وجدت على الحشا بردا لنارك إذ صليت
ولقد تطفل بي الشقاء على هواك وما دعيت
لا تسألن عن ليلتي باتت عداك كما أبيت
وإذا تكلم عاذلي فجوابه عندي السكوت
صيَّرتُ حبك شافعي ومن الشفيع ترى أتيت
غض جفونك يا سها م فقد رميت بما رميت
إني لأعرف بالصواب وطرقه لكن بليت
أنا من يقدمه الهوى لكن تؤخره البخوت
لو كان قلبي في يدي لجفا الحبيب كما جفيت
أنا في العذاب فلا أعيش كما أريد ولا أموت
وإذا تلاقت رفقة فحديثها ما قد لقيت
مولاي قد نلت المنى فاسلم فإني قد فنيت
أأخاف أن تبقى همومي في هواك وما بقيت
وعلى الحقيقة لو أذنت بأن أموت إذن حييت[2]

---

(١) الأبشيهي: المستطرف ج ٢ ص ٢٤٦.
(٢) ديوان القاضي الفاضل (نسخة خطية بدار الكتب المصرية).

ففي هذه المقطوعة تغزل القاضي الفاضل غزلا تذكرنا رقته وسهولته، وعدم تكلفه بأرق شعراء الغزل، فهو لا ينسى حبه طول حياته، وبالرغم من أنه شقي بهذا الحب فهو يشعر أنه في نعيم، ويقضي ليله مهموما ويدعو على أعداء محبوبه أن يصيبهم بالليل ما أصابه، وإذا تحدث العذال فلا يجيبهم، ويتحدث عن السهام المنبعثة من عيون محبوبه، وأنه بالرغم من أن عقله كان يدرك طرق الصواب فإنه بلي بالحب، ثم يدعو لمحبوبه بأن يسلم بالرغم مما يلاقيه هو من شقاء وصل إلى درجة الإشراف على الفناء، ثم انظر إلى البيت الأخير من هذه المقطوعة الذى يقرب مما نسمعه الآن بين شباب مصر فى معاكسة الفتيات فكلمة من المحبوب ولو كانت كلمة الموت له كفيلة بأن تحييه. فشعراء مصر جميعا قد أنشدوا فى الغزل كما قلنا، ومن الملاحظ أن مقدماتهم الغزلية قد طالت طولا يخيل إلينا معه أن الشاعر نسى غرضه من القصيدة. ففى مدائحهم كانوا يقدمون غزلا ويسرفون فى إطالة الغزل ثم يتخلصون إلى المدح فى شيء من الرقة، والجمال. فمثلا قال ابن سناء الملك فى مدح القاضى الفاضل:

ضننت بطرف ظل بعدى سقمه ... أرأيتم من ضن حتى بالضنى
يا عاذلين جهلتم فضل الهوى ... وعذلتم فيه ولكنى أنا
إنى رأيت الشمس ثم رأيتها ... ماذا علىّ إذا هويت الأحسنا
وسألت من أى المعادن ثغرها ... فوجدت من عبد الرحيم المعدنا
أبصرت جوهر ثغرها وكلامه ... فعلمت حقا أن هذا من هنا

ويقول بهاء الدين زهير فى قصيدة يمدح بها الأمير نصير الدين ابن اللمطى:

لها خفر يوم اللقاء خفيرها ... فما بالها ضنت بما لا يضيرها
أعادتها أن لا يعاد مريضها ... وسيرتها أن لا يفك أسيرها
وها أنا ذا كالطيف فيها صبابة ... لعلّى إذا نامت بليل أزورها
من الغيد لم توقد مع الليل نارها ... ولكنها بين الضلوع تثيرها
تقاضى عزيم الشوق منى حشاشة ... مروعة لم يبق إلا يسيرها
وإن الذى أبقته منها يد الهوى ... فداء بشير يوم وافى نصيرها

أو قول البهاء زهير فى مدح السلطان صلاح الدين بن العزيز:

آها لقلب ما خلا من لوعة ... أبدا يحن إلى زمان قد خلا
ورسوم جسم كاد يحرقه الهوى ... لو لم تبادره الدموع لأشعلا

ولقد كتمت حديثه وحفظته ... فوجدت دمعى قد رواه مسلسلا
أهوى التذلل فى الغرام وإنما ... يأبى صلاح الدين أن أتذللا

وعلى هذا النحو أبدع شعراء مصر فى تخلصهم إلى المدح فى شىء من رشاقة اللفظ، وجمال المعنى مما يدل على تمكن الفن عندهم، ثم انظر إلى ابن مطروح فى هذه المقطوعة الغزلية الجميلة التى صور فيها عشقه وضعفه وتخاذله أمام محبوبه، وصور هذا المحبوب فى صور مختلفة:

هزوا القدود، وأرهفوا سمر القنا ... واستبدلوا بدل السيوف الأعينا
وتقدموا للعاشقين فكلهم ... أخذ الأمان لنفسه إلا أنا
لا أن لى جلدا ولكنى أرى ... فى الحب كل دقيقة أن أفتنا
لا خير فى جفن إذا لم يكتحل ... أرقا، ولا جفن تجافاه الضنى
وأنا الفداء لبابلى لحاظه ... لا تستطيع الأسد تثبت إن رنا
لما انثنى فى حلة من سندس ... قالت غصون البنا ما أبقى أنا
هذا على أن الغصون تعلمت ... منه رشاقة لينها لما انثنى
وبخده وبشعره وعذاره ... معنى العقيق وبارق والمنحنى
أقسى علىّ من الحديد فؤاده ... ومن الحرير تراه خدا ألينا
شبهته بالبدر قال ظلمتنى ... يا عاشقى والله ظلما بينا(1)

أو قوله:

إن قسته بالبدر ما أنصفته ... أو بالغزال وجدته مظلوما
هذا نبى الحسن جاء فكلكم ... صلوا عليه وسلموا تسليما(2)

أو قول على بن عرام:

أطلت من اللوم المردد والعذل ... فأقلل فإنى فى الغرام لفى شغل
فما الحب إلا النار والعذل عنده ... هواء به يزداد فى قوة الفعل
رضيت بسلطان الهوى متسلطا ... على مهجتى فى الحكم بالجور لا العدل
بقلبى سهم لا بقلبك صائب ... رميت به عن سحر أعينها النجل

(1) ديوان ابن مطروح ص ٢٠٨ (طبع الجوائب) سنة ١٢٩٨.
(2) ديوان ص ٢٠٤.

تنام خلى الحال مما يحسه | شج كحلت عيناه بالسهد لا الكحل
وإن غزالا كالغزالة وجهه | ضَعيف القوى يسطو بليث أبى شبل
ومن خصره المهضوم كيف مع الضنى | ينوء بردف باهظ حمله عبل
وفى خده نار، وماء شبيبة | وما اجتمع الضدان إلا على قتلى
ومشمولة سُقِّيتُها من رضابه | ومالى سوى تقبيل خديه من نقل
فمن شفتيه كأسها وحبابها | يرى عقد ثغر عقده غير منحل(1)

ومن ذلك قول ابن مطروح:

سفرت وجاءت فى الغلائل تنثنى | فأرتك حظ المجتلى والمجتنى
ورنت فما تغنى التمائم والرقى | وأبيك عن لحظات تلك الأعين
بدوية كم دونها من ضارب | بالسيف مرهوب السطا لم يؤمن
من كان يملك قلبه من طرفها | نال الخلود وليس ذاك بممكن
قال العواذل إننى فى حبها | لا أرعوى لا أنتهى لا أنثنى
كم قلت للعذال لما زرتها | هذى الذى فى حبها لمتننى
لو شاهدوا منها الذى شاهدته | لتيقن العذال فيها أننى
لم أنسها ويدى مكان وشاحها | وسألتها عن خصرها قالت فنى
أعلمتها أن التفرق فى غد | قالت وعيش أبى لقد أحزنتنى
وبكت فلو نظمت لآلى دمعها | ظفرت يدى منها بعقد مثمن
وتقول إذ وجفت خيفة أهلها | أضرب بلحظى أو بقدى فاطعن
أو فاحتجب إن شئت إن لم تلقهم | بدجى ذوائبى الأولى حيرننى
فسمعت ما يلهى اللبيب مولها | ويذيب قلب الخاشع المتدين
ما كان أشوقنى للثم بنانها | ولقد ظفرت بلثمها فليهننى
ودخلت جنة وصلها متنزها | يا ليت قومى يعلمون بأننى

من هذا كله نستطيع أن نقرر ما قلناه سابقا إن شعراء مصر جميعا قد تغزلوا، سواء أكان شعرهم وقفا على الغزل أم كان شعرا تقليديا، هو المعروف عند جميع الشعراء الذين كانوا يقدمون لغرضهم بالغزل. ونستطيع أن نلاحظ أن الأوصاف التى ذكروها فى غزلهم هى نفس الأوصاف القديمة المألوفة. ولكن تشبيهاتهم وأساليبهم هى التى نستطيع أن نلمس

(1) الخريدة: ج ٢ ص ١٨١.

منها الروح المصرية. لم يترك شــعراء مصر فى فنهم الغزلى شــيئا عن الحب بوصاله وهجره والوشــاة والعاذلين ولا أجزاء جســم المحبوب إلا ونجده فى أشعارهم، ولكن فى شيء من العفــة إن صح هذا التعبير. والبعد عن فحش القــول، أو الألفاظ النابية. حقيقة وجد بين الشــعراء من تعرض لذكر أجزاء دقيقة من الجســم إنما لم يكن ذلك فى أشــعار الغزل التى وصلتنا إنما كان ذلك فى شــعر الهجاء أو شــعر التحامق. وشــعراء الغزل اتبعوا فى فهم مــا عرف فى هذا العصر بالطريقة الغرامية التى ســنتحدث عنها فى حديثنا عن مدرســة الرقة والسهولة.

الخمريات

أسهم شعراء مصر فى وصف الخمر ومجالسها وساقيها، ولهم فى ذلك كله جولات لعب فيها خيال الشعراء. فظهر فى شعرهم بعض المعانى الجديدة التى لم تخطر على بال الشعراء السابقين ومثل ذلك قول الخطير ابن مماتى فى وصف الخمر إذا صبت من الإبريق.

إذا انبـرت من فـم الأبـريـق تحسـبهـا — شهاب ليل رمى فى الكأس شيـطـانـا[1]

فالشــاعر صور الخمــر فى اندفاعها مــن الأبريق إلى الكأس كأنها شــهاب ثاقب رمى شيطانا ربض فى الكأس، ولعل الشاعر تخيل حبيبات الخمر فى الكأس على أنها الأنفاس الأخيرة للشيطان الغارق بعد أن أصابته رمية الشهاب الصائبة. وهذه صورة خيالية لا أكاد أعرف أحدا من الشعراء سبقه إليها. على أن أكثر الأوصاف التى ذكرها المصريون هى نفس الصفات القديمة التى رددها الشعراء، فقول هبة الله بن وزير.

ومـحـجـوبـة فى الـدن قد كانت الأولـى — قـديـمــا أعـدتـهـا لـصـرف هـمـومـهـا
يــلـوح مـن الـكـاسـات سـاطـع نـورهـا — كـشـمـس تـبـدت مـن فـتـوق غـيـومـهـا
ولــســت تــرى إلا شـعــاعــا وإنــمــا — يـدل عـلـيـهـا نـغـمـة مـن نـسـيمها[2]

فهــذه الأوصاف من أنها حجبت فى الدنان منــذ عهد بعيد وأن القدماء حرصوا عليها لتبديد همومهم وأنها فى الكأس مثل الشــمس وأنها كالشعاع لولا أن رائحتها تدل عليها. كل هذه أوصاف قديمة أكثر منها الشــعراء الســابقون وفى غير مصر. ولكن الجمال هنا فى طريقة تعبير الشاعر عن هذه المعانى.

(١) الخريدة: ج ١ ص ١١٣.
(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ١٥٤.

وكان الشـعراء يدعون بعضهم بعضا إلى مجالس اللهـو حيث الخمر والطرب، ويدعون أصدقاءهم إلى قضاء وقت يطيب فيه الجو لاحتساء الخمر وسماع القيان، ويقولون فى ذلك كله شـعرا هو صورة لما تعودنا قراءته من الأشـعار العربية فى هذا الموضوع، فالشاعر البهاء زهير يقول:

عـلا حـس الـنـواعـيـر	وأصـوات الـشـحـاريـر
وقـد طـاب لـنـا الـوقـت	صـفـا مـن غـيـر تـكـديـر
فـقـم يـا ألـف مـولاى	أدرهـا غـيـر مـأمـور
أدرهـا مـن سنى الصبح	تـزد نـورا عـلـى نـور
عـقـارا أصبحـت مـثـل	هـبـاء غـيـر مـنـثـور
بـدت أحـسـن مـن نـار	رأتـهـا عـيـن مـقـرور
نـزلـنـا شـاطـئ الـنـيـل	عـلـى بـسـط الأزاهـيـر
وقـد أضحـى لـه بالـمـو	ج وجـه ذو أسـاريـر
تـسـابـقـنـا إلـى اللـهـو	ووافـيـنـا بـتـبـكـيـر
وفـيـنـا رب مـحـراب	وفـيـنـا رب مـاخـور
ومـن قـوم مـسـاتـيـر	ومـن قـوم مـسـاخـيـر
ومـن جـد ومـن هـزل	ومـن حـق ومـن زور
فـطـورا فـى الـمـقـاصير	وطـورا فـى الـدسـاكـيـر
وإخـوان كـمـا تـدرى	مـن الـقـبـط الـنـحـاريـر
وفـيـهـم كـل ذى حـسـن	مـن الإحـسـان مـوفـور
وتـال لـلـمـزامـيـر	بـصـوت كـالـمـزامـيـر
وفـى تـلـك الـبـرانـيـس	بـدور فـى ديـاجـيـر
وجـوه كـالـتـصـاوير	تـصـلـى لـلـتـصـاويـر
ومـن تـحـت الـزنـانـيـر	خـصـورا كـالـزنـابـيـر
أتـيـنـاهـم فـمـا أبـقـوا	ولا ضـنـوا بـمـدخـور
لـقـد مـر لـنـا يـوم	مـن الـغـر الـمـشـاهـيـر[1]

(١) ديوان البهاء زهير ص ٨١ (طبع المطبعة المنيرية).

ففى هذه المقطوعة يصور الشاعر هذا اليوم الذى قضاه على شاطئ النيل بين جماعة من أصدقائه ذوى الأهواء المختلفة فيهم الجاد وفيهم الخليع، ولكنهم اتفقوا جميعا على أن يقضوا يوما سعيدا بين جمال الطبيعة وفى ضيافة الرهبان الأقباط الذين قدموا لهم الخمر الذى ادخروه عندهم.

وبالرغم من أن المعانى التى أتى بها الشاعر قديمة مألوفة، ولكن الصورة التى رسمها فى هذه المقطوعة صورة مصرية خالصة لا يمكن أن تصور إلا حياة مصرية بما فيها من ذكر النيل والأقباط.

والشاعر ابن النبيه يحث على شرب الخمر وطلب اللذات على جمال الطبيعة مما يجعلنا نتذكر شعراء مدرسة الطبيعة فى العصر الفاطمى فهو يقول مثلا:

الروض بين متوج ومشنف ... والزهر بين مدبج ومفوف
والغصن غناه الحمام فهزه ... طربا وحياه الغمام بقرقف
والظل يسبح فى الغدير كأنه ... صدأ يلوح على حسام مرهف
قس بالسماء الأرض تعلم أنها ... بكواكب الأزهار أحسن زخرف
أحداق نرجسها لخد شقيقها ... مبهوتة بجماله لم تطرف
والطل فى زهر الأقاح كأنه ... ظلم ترقرق فى ثنايا مرشف
رق الزجاج وراق كأس مدامنا ... ورضاب ساقينا الأغن الأهيف
فمزجت ذاك بهذه وشربتها ... ولثمته وضممته بتلطف
وجنيت من وجناته لما استحى ... وردا بغير مراشفى لم يقطف
ورنا إلىّ بطرفه فكأنما ... أهدى السقام لمدنف من مدنف
بتنا وقد لف العناق جسومنا ... فى بردتين تكرم وتعفف[1]

فالأبيات الأولى من هذه المقطوعة فى وصف الطبيعة تشبه إلى حد بعيد مقطوعات الشاعر الفاطمى ابن حيدرة العقيلى[2] الذى جعل شعره فى الطبيعة والخمر والحض على طلب اللذة، وابن النبيه هنا صورة أخرى لابن حيدرة فى وصفه للطبيعة أو فى مجونه ولذاته.

---

(١) ديوان ابن النبيه ص ٣٠.
(٢) راجع كتاب «فى أدب مصر الفاطمية».

أما الشاعر الخطير بن مماتى فهو يصف مجونه وكأنه يروى قصته مع تلك الفتاة التى قضى معها طول الليل فهو يقول:

يارب خود زرتها ... فى الليل بعد هجودها
فاجأتها فتبالهت ... فلزمت ضم نهودها
ورشفت خمر رضابها ... وجنيت ورد خدودها
وأمنت فى قصر الوصا ... ل حياة طول صدودها
حتى إذا ولى الدجى ... فى عدها وعديدها
وبدت جيوش الصبح فى ... أعلامها وبنودها
فارقتها ومدامعى ... تحكى جمان عقودها[1]

ويقول البرهان ابراهيم بن الفقيه:

أحد بالعود أكؤُسَ الصهباء ... فى رياض ملأى من الأنداء
نفضتْ راحة الغمام عليها ... لؤلؤًا بددَّته كف الهواء
ولدينا مقطَّعات عليها ... نصل السكر بالضحى والمساء
بسط الروض أخضرا فى ذراها ... فبدت مثل أنجم فى سماء[2]

والشاعر أمين الدين بن أبى الوفاء المشهور بابن العصار المتوفى سنة ٦٣٠ هـ يقول:

لا تلمنى فى الراح والريحان ... وسماعى مثالثا ومثانى
واسقنى بالكبير حثا فحثا ... بين زهر الرياض حتى ترانى
لا تلذ الحياة إلاَّ بشرب ... وغرام وذاك أغلى الأمانى
حبذا حبيب عطوف ... ذكر الوصل بعد ما قد جفانى
زارنى بالهلال فوق قضيب ... ظلت أجنى منه قطوف المجانى
أنا دعنى وما تراه فسادا ... فإمامى فيما ارتكبت ابن هانى[3]

(١) الخريدة ج ١ ص ١١٦.
(٢) ابن سعيد: المغرب ص ٢٥٥.
(٣) نفس المصدر السابق ص ١٧٥.

فهؤلاء الشعراء أصحاب هذه المقطوعات السابقة اتفقوا جميعا على الدعوة إلى شرب الراح وسماع الأغانى واللهو بالنساء بين جمال الطبيعة، حتى ذهب ابن العصّار صاحب المقطوعة الأخيرة إلى أنه يتبع مذهب أبى نواس فى المجون واللهو. ولا يستمع إلى من يقول له بفساد هذا المذهب، بل أصرَّ على أن أبا نواس إمامه فى حياته. وشعراء العصر الأيوبى أكثروا من هذه المعانى وتلك الصور بالرغم مما ساد العصر من ضعف اقتصادى، بسبب كثرة الحروب التى خاضها السلاطين الأيوبيون، وبسبب تلك المجاعات التى كانت أثرا لانخفاض النيل عدة مرات[1].

ونضرب مثلا لهذه المجاعات؛ ما حدث فى سنة ست وتسعين وخمسمائة للهجرة فى سلطنة الملك العادل أبى بكر بن أيوب، إذ يقول المقريزى «وكان سبب الغلاء توقف النيل عن الزيادة وقصوره عن العادة، فتكاثر مجىء الناس من القرى إلى القاهرة من الجوع، ودخل فصل الربيع فهب هواء أعقبه وباء وفناء وعدم القوت حتى أكل الناس صغار بنى آدم من الجوع، وكان الأب يأكل ابنه مشويا ومطبوخا، والمرأة تأكل ولدها. فعوقب جماعة بسبب ذلك، ثم فشا الأمر وأعيا الحكام، فكان يوجد بين ثياب الرجل والمرأة كتف صغير أو فخذة أو شىء من لحمة، وأكثر ما يوجد ذلك فى أكابر البيوت...،.... إلخ»[2] فكل هذه المصائب التى حلت بالبلاد جعلت المصريين يميلون إلى لون من الاتكال على الله والزهد فى الحياة مما سهل على الصوفية نشر مبادئهم، ومع ذلك كله فلم يترك المصريون لهوهم ومجونهم وهم فى هذا الضيق الشديد، وهذا شأنهم دائما فى كل أزمة تقابلهم، لا يجدون متنفسا لهم من الهم والكرب إلا بالمجون والفكاهة، ويكفى أن نذكر هنا ما قاله القاضى الفاضل فى متجددات سنة سبع وثمانين وخمسمائة للهجرة، «فى شوال قطع النيل الجسور، واقتلع الشجر، وغرّق النواحى وهدم المساكن وأتلف كثيرا من النساء والأطفال...، ودخلت البلد – أى القاهرة – وفيها من البغى ومن المعاصى ومن الجهر بها ومن الفسق ومن الزنا واللواط ومن شهادة الزور ومن مظالم الأمراء والفقهاء ومن استحلال الفطر فى نهار رمضان وشرب الخمر فى ليله ممن يقع عليه اسم الإسلام، ومن عدم النكير على ذلك جميعه، مالم يُسمع ولم يُعهد مثله»[3]، فبالرغم مما حل بالبلاد من مصائب لم يترك المصريون مجونهم.

---

(١) راجع فى ذلك كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة المقريزى نشر الدكتور جمال الشيال.

(٢) المقريزى: إغاثة الأمة ص ٢٩ وما بعدها.

(٣) المقريزى: الخطط ج ٣ ص ٣٧ وما بعدها.

ابن النبيه «٦١٩ هـ»

أبو الحسن على بن محمد بن يوسف بن يحيى الملقب بكمال الدين، المعروف بابن النبيه، الشاعر الذى وصفه السيوطى بقوله «الشاعر المشهور أحد شعراء العصر»[١] وقال ابن شاكر «الأديب الشاعر البارع صاحب الديوان المشهور»[٢] ولا تذكر المراجع التى بين أيدينا شيئا عن أسرته، بل أغفلت هذه المراجع الحديث عن مولده، ونشأته، فنحن لا نعرف أين ومتى ولد، ولا ندرى شيئا عن طفولته أو شبابه، ولا شيئا عن أساتذته الذين تلقى عنهم حتى بلغ هذه المرتبة فى الفن، فالذى يقرأ ديوان ابن النبيه يستطيع بسهولة ويسر أن يحكم بأنه كان متضلعا فى العلوم الأدبية، وعلوم العربية، كان متأثرا بشعر القدماء، فأحيانا تراه متأثرا خطى أبى الطيب المتنبى فى مدائحه لسيف الدولة، مثل قول ابن النبيه فى مدح الملك الأشرف موسى:

ملك غرار السيف خير دروعه ... والصافنات الجرد خير حصونه
ملك يرى بين الصوارم والقنى ... كالليث فى أشباله وعرينه
ملك إذا ما جاش بحر جيوشه ... ملأ الملا بسهوله وحزونه
لو كان بين يدى «علىّ» منهم ... صف لحاز النصر فى صفينه[٣]

فمثل هذه المقطوعة تذكرنا منذ أول وهلة بهذه القصائد التى تعد من أروع ما أنشده المتنبى وتدلنا على مدى تأثر ابن النبيه بالشاعر القديم. ويقول بعض الباحثين إننا نجد فى شعر ابن النبيه ما يذكرنا بأبى نواس فهو يطلب اللذة، ويدعو إلى المجون واللهو كما كان يفعل الشاعر أبو نواس، فابن النبيه يقول فى الدعوة إلى الشراب وفى وصف الخمر وساقيها:

طاب الصبوح فهاك وهات ... واشرب هنيئا يا أخا اللذات
كم ذا التوانى والشباب مطاوع ... والدهر سمح والحبيب مواتى
قم فاصطبح من شمس كأسك واغتبق ... بكواكب طلعت من الكاسات
صفراء صافية توقد نورها ... فعجبت للنيران فى الجنات

(١) السيوطى: حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٦.
(٢) ابن شاكر: فوات الوفيات ج ٢ ص ٧١.
(٣) ديوان ابن النبيه ص ٣٥.

ينسل عن قار الظروف حبابها		والدر مجتلب من الظلمات
وتريك خيط الصبح مفتولا إذا		مرقت من الراووق فى الطاسات
عذراء واقعها المزاج أما ترى		منديل عذرتها بكف سقات
يسعى بها عبل الروادف أهيف		خنث الشمائل شاطر الحركات
يهوى فتسبقه ذوائب شعره		ملتفة كأساود الحيات
بدر منازل نيرات كؤوسه		ما بين منصرف وآخر آت
لو قسمت أرزاقه بيمينه		عدل الزمان على ذوى الحاجات[1]

فالشاعر هنا يمدح الصبوح ويدعو إلى من يشاركه فى شرابه. وينعى الكسل والتوانى لأن الظروف كلها مهيأة، فهناك الشباب والحبيب الذى أقبل للمشاركة فى الشراب، ثم هذه الفرص التى سمح بها الدهر، لهذا يدعو شاعرنا إلى تعاطى الخمر فى الصباح وفى المساء، وبعد هذا الإلحاح فى دعوته أخذ فى وصف الخمر، فهى شمس فى الصباح، وكواكب بالليل، يخرج حبابها من القار الأسود كما يخرج اللؤلؤ من الظلمات إلى غير ذلك من هذه الصفات التى عرفها شعراء العرب من قبل، وإذا تحدث عن الساقى فحديثه هو نفس حديث الشعراء السابقين، ولكن أسلوب الشاعر هنا، ودقة اختياره للألفاظ التى رسم بها صوره المختلفة تجعلنا نعجب بفن هذا الشاعر، ولكن ذلك كله لا يجعلنا نقول إن الشاعر كان متأثرا بأبى نواس، إنما كان يتبع شعراء الغزل والطبيعة الذين كانوا فى العصر الفاطمى، فكانوا يدعون مثله إلى هذا اللون من اللهو والمجون ويكفى أن نلقى نظرة على شعر الأمير تميم وابن وكيع التنيسى وابن حيدرة العقيلى وغيرهم من شعراء العصر الفاطمى لندرك أن ابن النبيه لم يكن إلا تلميذا من هذه المدرسة المصرية الخالصة بالرغم من هذا التشابه بين منهج أبى نواس ومنهج شعراء هذه المدرسة المصرية فالجميع يطلبون اللذة والتمتع بما فى الحياة من مباهج.

وذهب الباحثون أيضا إلى أن ابن النبيه متأثر بأبى النواس لأنه دعا إلى عدم الوقوف على الديار وتهكم بالبكاء بالأطلال فهو يقول مثلا:

دع النوح خلف حدوج الركائب		وسلِّ فؤادك عن كل ذاهب
ببيض السوالف حمر المرا		شف صفر الترائب سود الذوائب

(١) ديوان ابن النبيه ص ١٣.

فـمـا الـعـيـش إلا إذا مـا نـظـمـ ـت بـثـغـر الـحـبـاب ثـنـايا الحبـايـب
حـاشـيـك مـن وقـفـة بـالـطـلـول تـبـل الـصـدا بـصـداهـا الـمـجـاوب
تـكـلـف صـم الـحـجـار الـكـلام وكـم فـى جـنـون الـهـوى من عـجائـب
ولـو كـنـت تـشـكـو الـهـوى صـادقـا لـمـا عـلـلـتـك الأمـانـى الـكـواذب
تـأمـل كـؤوس عـتـيـق الـرحـيـق تـرى الـمـاء يـجـمـد والـخـمـر ذائـب
لـهـا فـى الـزجـاجـة رقـص الـشـبـاب ومـفـرقـهـا أشـمـط الـلـون شـائـب
وتـرعـد غـيـظـا إذا أبـرزت من الـدن كـالـمـحـصـنـات الـكـواعـب
كـأن الـحـبـاب عـلـى رأسـهـا جـواهـر قـد كـلـلـت فـى عـصـائـب
جـمـرتـهـا صـح عـنـد الـمـجـو س إن الـسـجـود إلـى الـنـار واجـب(١)

فهـذه المقطوعة وأمثالها من التهكم بمن وقف علـى الديار وبكى الأطلال أو ودع ركب الحبيب بالبكاء كل ذلك جعل بعض الباحثين يقولون إنه متأثر بأبى نواس. غير أنى لا أوافقهم على هذا الرأى لأن الشاعر مصرى متأثر بالحياة المصرية. شأنه فى ذلك شأن جميع الشعراء فى مصر الإسلامية الذين لم يعرفوا الوقوف على الديار ولم يذكروا الأطلال لأن حياة الاستقرار فى مصر لا تعرف هذا اللون الذى عرفته البادية. فالمصريون لا يتحدثون عن الرسوم الدارسة لأنها ليست من حياتهم. وإذا فرض ووجدنا شاعرا مصريا ذكر الديار والأطلال فإن ذلك يعتبر تقليدا لشعراء العرب. ونظر المصريون إلى هذا القول على أنه من المستظرفات. معنى هذا أننا لا نستطيع أن نقول إن ابن النبيه كان متأثرا بأبى نواس بالرغم مما نجده فى شعره من التهكم بالواقفين على الديار. ويخيل إلى أن ابن النبيه كان فنانا يعشق الجمال ويتبعه وكان يهيم بالطبيعة أيضا. فهو يقول مثلا:

يـا سـاكـنى السفح كم عـيـن بكم سفحت نـزحـتـمـو فهى بـعـد البعد مـا نزحت
لـهـفـى لـظـبـيـة أنـس مـنـكـمـو نـفـرت لابل هى الشمس زالت بعد ما جـنـحـت
بـيـضـاء حجبها الـواشـون حين سـرت عـنـى فـلـو لمحت صبغ الـدجـا لـمحت
يـقـتـص من وجـنـتيها لـحـظ عاشـقـها إن ضـرجـت قـلـبـه باللحظ أو جرحـت
من لـى بـسـلـم وفـى أجـفـان مـقـلـتـهـا لـلـحـرب بـيـض حـداد قط مـا صفحت
يـهـتـز بـيـن وشـاحـيـهـا قضيب نـقـا حـمـائم الـحـلـى فى أفـنـانـه صـدحـت
وأسـود الـخـال فى مـحـمـر وجـنـتـها كـمـسـكـة نـفـحـت فى جمرة لـفـحـت

(١) ديوان ابن النبيه ص ٢٨.

لها جفون وأعطاف عجبت لها … بالسقم صحت وبالسكر الشديد صحت
وروضة وجنات الورد قد خجلت … فيها ضحى وعيون النرجس انفتحت
تشاجر الطير في أفنانها سحرا … ومالت القضب للتعنيق واصطلحت
والقطر قد رش ثوب الدوح حين رأى … مجامر الزهر من أذياله ونفحت
باكرتها وحمام الزهر نافرة … عن البروج بكف الصبح إذ وضحت
ما بين غدران ماء كاللجين طفت … وأكؤس كنضار ذائب طفحت
بكر إذا ابن سماء مسها لبست … ثوب الحباب حياء منه واتشحت
تشعشعت في يد الساقي وقد مزجت … كأنها بنصال الماء قد ذبحت
يسعى بها آهيف خفت معاطفه … لكن روادفه من ثقلها رجحت
للحسن ماء ومرعى فوق وجنته … ربيع عيني فيه كلما سرحت(1)

ومثل قوله:

إذا رأيت الهلال والغصنا … ذكرت قدا ومنظرا حسنا
مهفهف ما إن ثنى لنا وبدا … إلا رأيت الهلال والغصنا
كالروض حسنا وبهجة وجنى … كالبدر حسنا ورفعة وسنا

فالشاعر هنا يتحدث عن محبوبه متغزلا ويصف المحبوب بالهلال والغصن وأنه كالروضة في الحسن والبهجة وكالبدر في الرفعة والسنا.

ويقول مرة أخرى يصف جمال الروض في دمشق في قصيدة يمدح بها الصاحب بن شكر أثناء زيارة هذا الوزير إليها فهو يقول:

يا نديمي بالله غني بذكرا … ه وموه عن ريقه بالكاس
واغتنم لذة الزمان فما جلق … إلا للهو والإيناس
حبذا النيران من أرض نور … واخضرار المروج من باناس
والنسيم الذي يمر على الغو … طة ريان عاطر الأنفاس(2)

فشاعرنا يعجب بهذه المناظر التي أحاطت بدمشق وبذلك النسيم الذي يمر على غوطة دمشق. فالطبيعة عنده كانت موضوعا من موضوعات شعره فكثيرا ما كان يلائم بين غزله والطبيعة ويشبه المحبوب دائما بالمناظر التي يجدها في الطبيعة.

---

(1) ديوان ابن النبيه ص ٢٣.

(2) الديوان ص ٧٠.

كان ابن النبيه من جماعة الشعراء الذين ذكرهم ابن ظافر الأزدى أنهم من أصدقائه، وروى له فى كتابه بدائع البداية بيتين فى منافسة ذهنية كانت بين هؤلاء الأصدقاء الشعراء فى فانوس السحور:

حبذا فى الصيام مئذنة الجا ... مع والليل مسبل أذياله
خلتها والفانوس إذ رفعته ... صائدا واقفا لصيد الغزاله[1]

وروى له أيضا مقطوعة تبارى الشعراء فى الصنع فى معناها:

وغادة قالت وفى خدها ... حية مسك قد سبتنى المنام
حمرة خدى إذا قارنت ... سواد أصداغى هام الهوام
أما ترى الحية تسعى إلى النا ... ر إذا ما أضرمت فى الظلام

وروى له فى نفس المعنى أيضا:

فى ورد خديك بدت عقرب ... وحية تلسع جانيها
يقول من بات سليما بها ... يا عيش من أصبح حاويها[2]

ولا ندرى كيف اتصل ابن النبيه بالأمراء الأيوبيين، ولكننا نرى فى ديوانه عدة قصائد فى مدح الملك العادل[3]، والملك المظفر[4].

ولا ندرى تماما تاريخ هذه القصائد غير أن ابن النبيه استطاع أن يوثق صلته بالملك الأشرف موسى فاتخذه كاتب إنشائه فى الجزيرة. فأقام ابن النبيه فى نصيبين وظل بها إلى أن مات، ونستطيع أن نرجح أنه اتصل بالأشرف حوالى سنة ٦٠٠ هجرية، ففى إحدى قصائده أشار إلى انتصار الأشرف على كيكاووس صاحب الروم، وهذه الواقعة كانت حوالى سنة ٦١٣ هـ[5] ثم إنه أشار فى قصيدة أخرى إلى دخول الملك الأشرف إلى خلاط وكان ذلك سنة ٦٠٩ هـ. فهذا كله يرجح أن صلة الشاعر بالأشرف كانت قبل هذه السنوات، وإذا عرفنا أنه مدح القاضى الفاضل بست مقطوعات لا نشك أنه أنشدها قبل سنة ٥٩١ هـ

---

(١) بدائع البداية ص ١٤٩.
(٢) نفس المرجع ص ٩٥٤.
(٣) الديوان ص ١٠.
(٤) الديوان ص ٦٣.
(٥) راجع الديوان ص ٧٦.

وهى السنة التى انقطع فيها الفاضل عن الحياة العامة واعتزل الناس واعتزل الشعراء. إذن تكون صلة الشاعر بالأشرف بعد هذه السنة، كل ذلك يجعلنا نرجح أنه ترك مصر إلى الجزيرة حوالى سنة ٦٠٠ هـ. وابن النبيه فى الجزيرة اتصل بعدد من الشعراء على نحو ما كان متصلا بجماعة ابن ظافر، ونذكر من هؤلاء الشعراء أبا القاسم ابن نفطويه، وأبا العز الأعيمى وأبا محمد القلعى وغيرهم[1].

غير أن ابن النبيه لم يمدح أحدا وهو فى الجزيرة سوى الملك الأشرف فإنه انقطع إليه انقطاعا تاما مما يذكرنا بانقطاع المتنبى عندما كان يتصل بأمير من الأمراء. وابن النبيه فى شعره هو تلميذ لمدرسة الطبيعة من ناحية، ومدرسة الرقة والسهولة من ناحية أخرى، غير أن صناعته الكتابية كانت تؤثر عليه أحيانا فهو مع رقته وسهولته كان يزين شعره بما كان يزين به شعراء مدرسة الكتاب أشعارهم، فاقرأ له هذه المقطوعة وما فيها من تشبيهات وكنايات وتلاعب لفظى مع سهولة فى الألفاظ ورقة فى الأسلوب:

من سحر عينيك الأمان الأمان	قتلت رب السيق والطيلسان
أسمر كالرمح له مقلة	لو لم تكن كحلاء كانت سنان
أهيف عبل الردف حول اللمى	مر الجفا قاس رطيب البنان
يزداد إذ أشكو له قسوة	ولو شكوت الحب للصخر لان
ساق لها رضوان عن حفظه	ففر من جملة حور الجنان
بدر وكأس الراح شمس الضحى	لله ما أسعد هذا القرآن
توقدت جمرة لألائها	كأنها بهرام أو بهرمان
بخده أو طرفه أو جنا	لماه سكرى لا ببنت الدنان
يا لائمى دعنى فإنى فتى	ما ترك الحب بجسمى مكان
لا تسأل العاشق عن حاله	فدمعه عن سره ترجمان
لولا دموعى والضنا لم أبح	قد ينطق المرء بغير اللسان[2]

وعلى هذا النحو من الفن كان شعر ابن النبيه حتى إن بعض مقطوعاته يتغنى بها فى عصرنا الحديث مثل قصيدته «أفديته إن حفظ الهوى.. إلخ» وقصيدته «أمانا أيها القمر المطل.. إلخ» وهذا يدل على أن غزله صالح لكل عصر ولكل بيئة.

(١) راجع ابن ظافر بدائع البداية ص ١٤٢، ص ١٤٩.
(٢) الديوان ص ٢١.

الفكاهة

أما الفكاهة فى الشـعر المصرى فى ذلك العصر فقد ظهرت ظهورا واضحا، والفكاهات مما شـغف بها الشـعب المصرى وعرف بها منذ أقدم عصوره بل لا أغالى إذا قلت إنها من مقومات الشـخصية المصرية، والفكاهة تقوم فى الأغلب على التلاعب اللفظى وخاصة على فـن التوريـة، ثم على عمـق الفكرة مما يدل على مهارة المصـرى وبراعته فى هذا الفن من القول وعلى أصالته فى نفس الشـعب، على أن كثيرا ما تخرج الفكاهة المصرية إلى شـىء مـن الفحش مما يزيد فى أثر وقعها فـى النفس. ولابد هنا أن نفرق بين الفكاهة والهجاء. فالهجاء لون من ألوان السـباب الغرض الأول منه أن ينال الهجّاء من خصمه حتى يشـفى غلته ويريح قلبه مما فيه من حقد، فالغرض منه الإيذاء قبل كل شىء إمعانا فى الخصومة والعـداء. أمـا الفكاهة فهى لون من ألوان الإضحاك على الغـير دون أن يقصد إلى إيذائه، حقيقة قد تكون الفكاهة أشـد إمعانا فى الإيذاء من الهجاء، فقد تكون السـخرية اللاذعة أشـد وقعا من أى شـىء آخر. ولكن ذلك كله يتوقف على نفسية المتفكه به. فالدعابة بين الأصدقاء مثلا بالرغم مما فيها من قسـوة ومن فكاهة سـاخرة لانستطيع أن نتخذها هجاء؛ وإن قيلـت الفكاهة نفسـها فى خصم فهى هجاء لأن المقصود بها فـى هذه الحالة الإيذاء والنيل من الخصم فمثلا قال البهاء زهير :

الـتـحـى الأمـرد الـذى ... كـان فى الـتـيـه مـسـرفـا
حـسـنـا كـان وجـهـه ... وسـريـعـا تـصـحـفـا
سـرَّ والله نـاظـرى ... مـا رأى فـيـه واشـتـفـى
شـكـر الله لـحـيـةً ... صـيـرت وجـهـه قـفـا[1]

فهنا يتفكه الشـاعر بصديقه الأمرد لأنه يريد بهذه الدعابة الإضحاك قبل كل شـىء ثم يقول البهاء زهير أيضا:

وأحـمـق ذى لـحـيـة ... كـبـيـرة مـنـتـشـرةْ
طـلـبـت فـيـهـا وجـهـه ... بـشـدة فـلـم أره
تـبـا لـهـا من لحيـة ... كـبـيـرة مـحـتـقـرةْ
مـضـحـكـة مـا كـان قـ ... ـط مـثـلـهـا لـمـسـخـرة

(١) ديوان البهاء زهير ص ١٣٣.

فالشاعر هنا يهجو، وهجاؤه فيه سخرية لاذعة مؤذية وهكذا نستطيع أن نفرق بين الفكاهة والهجاء، فمن الفكاهات المصرية التى تذهب مذهب الدعابة ما يقوله البهاء زهير يصف شيخا يدعى العلم كان يرتاد مجلسه:

كلما قلت استرحنا ... جاءنا الشيخ الإمام
فاعترانا كلنا منه ... انقباض واحتشام
وعلى الجملة فالشيـ ... ـخ ثقيل والسلام

وقول الوجيه ابن الذروى فى صديقه جعفر:

لا تبعثوا بسوى المهذب جعفر ... فالشيخ فى كل الأمور مهذب
طورا يغنى بالرباب وتارة ... تأتى على يده الرباب وزينب[1]

فأمثال هذه الدعابة الساخرة أشد إيذاءً من الهجاء بالرغم من أنها قيلت فى صديق ولكن المصرىّ إذا أراد أن يتفكه فهو يتهكم بصديقه كما يهجو عدوّه. ومن أمثلة الفكاهة فى الشعر قول ابن العصار وقد زار قرية فقدمت له المائدة ولكن أحدق بها جماعة من البدو فقال لهم:

لا كان يوم قد غدا جامعا ... لى بأناس ما لهم فائدة
قد قلت إذا حاموا على زادهم ... قد جاءت الأنعام والمائدة[2]

فالشاعر استخدم التورية فى هذه الفكاهة إذ ذكر سورة الأنعام ليورِّى بها عن هؤلاء البدو، ويورّى بسورة المائدة عن هذه المائدة التى أمامهم. ومثل ذلك قول الأسعد بن مماتى فى رجل رآه بدمشق:

حكى نهرين ما فى الأر ... ض من يحكيهما أبدا
حكى فى خلقه ثورى ... وفى أخلاقه بردا[3]

فثورى وبردا نهران بالشام والشاعر شبَّه بهما هذا الإنسان فهو يشبه الثور فى الخلقة والبرد فى الأخلاق. ومن الفكاهات الطريفة تلك القصيدة التى أنشدها ابن الذروى فى صديق له أحدب ظن أن الشاعر ابن الذروى هجاه فبعث ابن الذروى إليه هذه القصيدة

(١) الصفدى: الغيث ج ١ ص ٣٦٠.
(٢) المغرب لابن سعد ص ٢٧٧.
(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٨٢.

يتنصل فيها من الهجاء ويعتذر إليه ويمدح حدبته فى صورة ساخرة هى أقرب إلى الهجاء ولكنها دعابة واضحة من اللون الذى يسميه العامة فى مصر «التريقة».

يا أخى كيف غيرتك الليالى ... وأحالت ما بيننا بالمحال
حاش لله أن أصافى خليلا ... فيرانى فى ودّه ذا اختلال
زعموا أننى أتيت بهجو ... معرب فيك عن شنيع المقال
كذبوا إنما وصفت الذى فيـ ... ـك من النبل والسنا والكمال
لا تظنن حدبة الظهر عيبا ... فهى للحسن من صفات الهلال
وكذاك القسى محدودبات ... وهى أنكى من الظبا والعوالى
ودنانى القضاة وهى كما تعـ ... ـلم كانت موسومة بالجمال
وأرى الانحناء فى منسر الكا ... سر يلفى ومخلب الرئبال
وأبو الغصن أنت لا شك فيه ... وهو رب القوام والاعتدال
قد تحليت بانحناء فأنت الرا ... كع المستمر فى كل حال
وتعجلت حمل وزرك فى الظهـ ... ـر فأمنًا فى موقف الأهوال
إن حمل الذنوب أهون فى الدنـ ... ـيا على أنه من الأثقال
كون الله حدبة فيك إن شئـ ... ـت من الفضل أو من الإفضال
فأنت ربوة على طود حلم ... منك أو موجة ببحر نوال
ما رأتها النساء إلا تمنت ... لو غدت حلية لكل الرجال
وإذا لم يكن من الهجر بد ... فعسى أن تزورنى فى الخيال[1]

فالشاعر ابن الذروى يداعب صديقه ويسخر منه ولكن فى صيغة مهذبة فهو يمدحه ولكنه فى الوقت نفسه يريد أن يضحك منه وأن يضحك عليه إخوانه وأصدقاءه فهو يمدح حدبته وأنها دليل الجمال والحسن ويتخذ من المحدودبات وسيلة لهذا المدح فالهلال يوصف بجماله وحسنه ولا شك أن هذه مغالطة من الشاعر لأن الهلال مقوس ولكن الشاعر يريد المداعبة قبل كل شيء، والقسي ليست أنكى من الظبا والعوالى إنما هى النبال التى ترمى عن القسي فهذه مغالطة أخرى من الشاعر. ثم يعود إلى مداعبته بأن الأحدب هو الراكع المستمر وأنه يحمل وزره على ظهره فهى ذنوب يحملها فى هذه الدنيا ستخفف عنه العذاب يوم القيامة ثم اقرأ له هذه الدعابة القاسية من أن النساء تتمنى أن يتحلى كل رجل بحدبة.

(١) الخريدة ج ١ ص ١٨٧.

هذه كلها صور ساخرة مؤلمة أرسلها ابن الذروى إلى صديقه هذا ثم ختم سخريته بسخرية قاسية بقوله إذا كان الأحدب لا يرى بدا من هجر صديقه فهو يطلب زيارته فى الخيال.

ومثل هذا يقول ابن مطروح وقد عاده أصحابه ويظهر أن تلك الزيارة أقلقت الشاعر فأنشد يقول:

وصاحب عادنى يوما فأقلقنى ... حتى ظننت رسول الموت وافانى
ولو أطال قليلا لم يطل أجلى ... وجاءنى غاسلى يسعى بأكفانى
فليت شعرى وطلاب الهوى عجب ... أعادنى أم لحاه الله عادانى(1)

وهكذا كانت الفكاهة المصرية. ويطول بى الأمر لو تحدثت عن كل هذه المقطوعات التى أنشدها شعراء مصر والتى تظهر فيها روح الدعابة بين الشعراء.

فن الهجاء

أما الهجاء فقد أكثر منه الشعراء وكانوا على شىء كثير من القسوة وتعمد الإيذاء حتى ذهب الشاعر المصرى ابن سناء الملك إلى هجاء الشمس بقوله:

لا كانت الشمس فكم أصدأت ... صفحة خد كالحسام الصقيل
وكم وكم صدت بوادى الكرى ... طيف خيال جاءنى من خليل
وأعدمتنى من نجوم الدجى ... ومنه روضا بين ظل ظليل
تكذب فى الوعد وبرهانه ... أن سراب القفر منها سليل
وتحسب النهار حساما فتر ... تاع وتحكى فيه قلب الذليل
إن صدأ الطرف فما صقله ... إلا التحلى بمحيا جميل
وهى إذا أبصرها مبصر ... حديد طرف عاد عنها كليل
يا غلة المهموم يا جلدة ... المحموم يا زفرة صب نحيل
يا فرحة المشرق وقت الضحى ... وسلحة المغرب عند الأصيل
أنت عجوز لم تبرجت لى ... وقد بدأ منك لعاب يسيل
وأنت بالشيطان قرنانة ... فكيف تهدينا سواء السبيل(2)

---

(1) ديوان ابن مطروح مطبعة «الجوائب».

(2) الصفدى الغيث ج ٢ ص ٢٣٦.

وقال علي بن عرام يهجو شخصا اسمه خالد:

عناصر الإنسان من أربع ... وخالد عنصره واحد
فمن كثيف الأرض تكوينه ... فهو ثقيل يابس بارد[1]

وقال هبة الله بن عرام:

كم عذلوه على بغاه ... شحا عليه فما أصاخا
ولو رأى في الكنيف (أ...) ... لغاص في إثره وساخا
أعياهم دواؤه صبيا ... فاستيأسوا منه حين شاخا[2]

ويهجو هبة الله بن وزير:

ومشتهر بالبخل غاو بلؤمه ... على يده قفل منيع وأغلاق
إذا زرته يزورّ مني تبرما ... فلا هو مسرور ولا أنا مشتاق
من الشجر الملعون لا ورق به ... ولا ثمر عقباه نار وأحرق[3]

وقال في أحدب:

انظر إلى الأحدب مع عريه ... وهي على الجبهة مبطوحه
كأنه لما علا ظهرها ... فارة نجار على شوحه

قال ابن سناء الملك:

لهفي على عشاقك الطرش ... العمي في عشقك لا العمش
عاشقك القش ولا غرو أن ... تلتهب النيران في القش
قالوا لقد أحدث من بعدنا ... مالا يرى قلت على الفرش[4]

وبلغ ابن سناء الملك أن الشاعر أبا المكارم بن وزير هجاه فأدبه وشتمه فكتب إليه ابن المنجم الشاعر يقول:

قل للسعيد أدام الله دولته ... صديقنا ابن وزير كيف تظلمه

(١) الخريدة ج٢ ص ١٧٥.
(٢) نفس المصدر ص ١٨.
(٣) الخريدة ج ٢ ص ١٥٠.
(٤) الغيث ج ١ ص ٢٤٧.

صفعته إذ غدا يهجوك منتقما ... منه ومن بعد هذا ظلت تشتمه
هجو بهجو وهذا بالصفع فيه ربا ... والشرع لا يقتضيه بل يحرمه
فإن تقل بالهجو عنده أثر ... فالصفع والله أيضا ليس يؤلمه

ومما قاله ابن سناء الملك وفيه فحش:

نـــا .... أو خـــرقـــوه ... وجـــاء مـــثـــل طـــنـــيـــن
وراح وهـــو كـــمـــيـــم ... وجـــاء وهـــو كـــعـــيـــن

وهكذا كان الهجاء فى الشعر المصرى فى العصر الأيوبى عبارة عن تهم تلصق بالمهجو، أو تجسيم صفات قبيحة تلحق به للزراية به وإيذائه والنيل منه.

الإخوانيات

علــى أن الفــن الذى أكثر منه المصريون فى عصرنا هــذا هو فن الإخوانيات والظاهر أن العلاقة المتينة التى كانت تربط الشعراء بعضهم ببعض مصدرها فن الأدب، فقد قرب الفن بينهــم؛ وجعــل منهم عصبة أولى قوة، وإخوانا فى الســراء والضــراء، ويخيل إلى أن هذه العلاقة لم تكن بين شــعراء مصر فحســب، إنما كانت أيضا بين كل شاعر يفد على مصر، وبين شعراء هذا البلد، ويكفى أن نذكر للتدليل على ذلك أن الشاعر شرف الدين بن عنين الذى وفد على مصر فاســتقبله شــعراؤها بما يليق بمكانته فى فن الشعر ولا سيما ابن سناء الملك بالرغم من أن ابن عنين هجا صلاح الدين والقاضى الفاضل بقوله:

ســلــطــانــنــا أعـــرج وكـــاتـــبـــه ... أعـــمـــش والـــوزيـــر مـــنـــحـــدب

هجا فى هذا البيت السلطان صلاح الدين بأنه أعرج، وهجا العماد بأنه أعمش، وهجا القاضــى الفاضل بأنه أحدب، مما جعل الســلطان يأمــر بنفيه إلى خارج مصر، فاضطر إلى الرحلة إلى الهند، ثم عاد إلى مصر بعد ذلك، واستمر فى حياته مع زملائه الشعراء.

مثل آخر نضربه لهذا الإخاء بين شعراء مصر والشعراء الوافدين هى قصة وفود ابن سعيد المغربى وكيف ذهب عدد من شــعراء مصر لاســتقباله بالإسكندرية عندما علموا بحضوره، ويحدثنا ابن ظافر فى كتابه بدائع البداية عن مدى الأخوّة التى كانت بين الشعراء شهاب الدين يعقوب نجم الدين ابن المجاور المعروف بابن أخت الوزير، والشــاعر نشو الملك على ابن مفرج ابن المنجم، والأعز ابن المؤيد، والوجيه الذروى وجعفر المنبود شــلعلع وغيرهم، وكيف كانوا يخرجون إلى أماكن النزهة، ويقرضون الشعر، ويتباحثون فى موضوعات شتى،

ويتبارون في الإنشاد، وكثيرا ما كانوا يختلفون فيما بينهم. ويتندر بعضهم ببعض، بل قد يؤدى الأمر إلى أن يهجو بعضهم بعضا، ولكنهم سرعان ما يعودون إلى صفوهم ووداهم، فمن ذلك مثلا ما يروى من أن الوجيه على ابن الذروى وهبة الله ابن وزير، وجماعة آخرون ذهبوا إلى حمام، فجرى بين ابن الذروى وابن وزير تنازع أدى إلى تناكر فضيلة. ثم تراضيا بالتحكيم، فحكم بأن يصنعا قطعتين فى صنعة الحمام على البديهة فصنع ابن الذروى:

إن عيش الحمام عيش هنىء ... غير أن المقام فيها قليل
جنة تكره الإقامة فيها ... وجحيم يطيب فيها الدخول
فكأن الغريق فيها كليم ... وكأن الحريق فيها خليل

أما ابن وزير فقد صنع:

لله يوم بحمام نعمت به ... والماء من حوضها ما بيننا جارى
كأنه فوق شفاف الرخام بها ... ماء يسيل على أثواب قصار

فانتقد الجماعة تشبيهه الماء واستبردوا ما أتى به فقال ابن الذروى:

وشاعر أوقد الطبع الذكاء له ... أو كاد يحرقه من فرط إذكاء
أقام يجهد أياما رويته ... وشبه الماء بعد الجهد بالماء[1]

ومثل هذا أيضا تلك القصة التى يرويها ابن ظافر إذ يقول: واجتمعنا ليلة فى رمضان بالجامع فجلسنا بعد انقضاء الصلاة للحديث وقد وقد فانوس السحور فاقترح بعض الحاضرين على الأديب أبى الحجاج يوسف بن على المنبوز بالنعجة أن يصنع فيه. وإنما طلب بذلك تعجيزه فصنع وأنشد:

ونجم من الفانوس يشرق ضوؤه ... ولكنه دون الكواكب لا يسرى
ولم أر نجما قط قبل طلوعه ... إذ غاب ينهى الصائمين عن الفطر

فانتدبت له من بين الجماعة وقلت هذا تعجب لا يصح لأنى والحاضرين قد رأينا نجوما لا تدخل تحت الحصر إذا غابت تنهى الصائمين عن الفطر وهى نجوم الصباح فأسرف الجماعة بعد ذلك فى تقريعه وأخذوا فى تمزيق عرضه وتقطيعه فصنع وأنشد:

هذا لواء سحور يستضاء به ... وعسكر الشهب فى الظلماء جرار
والصائمون جميعا يهتدون به ... كأنه علم فى رأسه نار

---

(١) ابن ظافر: بدائع البداية ص ١٣٨ وما بعدها.

فلما أصبحنا سمع من كان غائبا من أصحابنا في ليلتنا ما جرى فصنع الرشيد أبو عبد الله محمد بن متانو رحمه الله تعالى وأنشدنيه :

أحبب بفانوس غدا صاعدا ... وضوؤه دان من العين
يقضي بصوم وبفطر معا ... فقد حوى وصف الهلالين

وصنع الفقيه أبو محد القلعي :

وكوكب من ضرام الزند مطلعه ... تسري النجوم ولا يسري إذا رقبا
يراقب الصبح خوفا أن يفاجئه ... فإن بدا طالعا في أفقه غربا
كأنه عاشق وافي على شرف ... يرعى الحبيب فإن لاح الرقيب خبا

ثم صنعت بعد حين :

ألست ترى شخص المنار وعوده ... عليه لفانوس السحور لهيب
كحامل منظوم الأنابيب أسمر ... عليه سنان بالدماء خضيب
ترى بين زهر الزهر منه شقيقة ... لها العود غصن والمنار كثيب
وتبدو كخد أحمر والدجى لمى ... بدا فيه ثغر للنجوم شنيب
كأن لزنجي الدجى من لهيبه ... ومن خفقه قلبا عراه وجيب
تراه يراعي الصبح ليلا فإن دنا ... طلوع الصبح حان منه غروب
فهل كان يرعاها لعشق ففر إذ ... درى أن رومي الصباح قريب

وقلت في اختصار هذا المعنى :

انظر إلى المنار وال ... فانوس فيه يرفع
كحامل رمحا سنا ... نه خضيب يلمع

وقلت أيضا :

ألست ترى حسن المنار وضوءه ... يرفع من جنح الدجنة أستارا
تراه إذا جن الظلام مراقبا ... له مضرما في قلب فانوسه نارا
كصب بخود من بني الزنج سامها ... وصالا وقد أبدى لترغب دينارا

وقلت فيه :

وليلة صوم قد سهرت بجنحها ... على أنها من طولها تعدل الدهرا

حكى الليل فيها سقف ساج مسمرا ... من الشهب قد أضحت مساميره تبرا
وقام المنار المشرق اللون حاملا ... لفانوسه والليل قد أظهر الزهرا
كما قام رومى بكأس مدامة ... وحيا بها زنجية وشحت درّا

قال ولما صنعت هذه القطع ندبت أصحابنا للعمل فصنع شهاب الدين يعقوب:

رأيت المنار وجنح الظلام ... من الجو يسدل أستاره
وحلق فى الجو فانوسه ... فذهب بالنور أقطاره
فقلت المحلق قد شب فى ... ظلام الدجى للقرى ناره
وخلت الثريا يدا والنجو ... م ورقا غدا البدر قسطاره
وخلت المنار وفانوسه ... فتى قام بصرف ديناره

وأنشدنى القاضى أبو الحسن بن النبيه لنفسه:

حبذا فى الصيام مئذنة الجا ... مع والليل مسبل أذياله
خلتها والفانوس إذ رفعته ... صائدا واقفا لصيد الغزاله

وأنشدنى ابن نفطويه:

يا حبذا رؤية الفانوس فى شرف ... لمن أراد سحورا وهو يتقد
كأنما الليل والفانوس متقد ... فى الجو أعور زنجى به رمد

وأنشدنى أيضا لنفسه:

نصبوا لواء للسحور وأوقدوا ... فى رأسه نارا لمن يترصد
فكأنه سبابة قد قمعت ... ذهبا وقامت فى الدجى تتشهد

وأنشدنى الفقيه أبو يحيى السولى رحمه الله تعالى لنفسه:

وليلة ملئت أشداقها لعسا ... واستوضحت غرر من ثغرها شنبا
ولاح كوكب فانوس السحور على ... إنسان مقلتها النجلاء واشتهبا
حتى كأن دجاها وهو ملتهب ... زنجية حملت فى كفها ذهبا

وصنع الأديب أبو العز مظفر الأعمى وكتب بها عنه إلىّ وكان قد سمع جميع المقاطيع فأخذ معانيها وقال:

أرى علما للناس في الصوم ينصب | على جامع ابن العاص أعلاه كوكب
وما هو في الظلماء إلا كأنه | على رمح زنجي سنان مذهب
ومن عجب أن الثريا سماؤها | مع الليل تلهي كل من يترقب
فطورا تحييه بباقة نرجس | وطورا يحييها بكأس تلهب
وما الليل إلا قانص لغزالة | بفانوس نار نحوها يتطلب
ولم أر صيادا على البعد قبله | إذا قربت منه الغزالة يهرب

وأنشد في الشريف أبو الفضل جعفر:

كأنما الفانوس في | صاريه لما اتقدا
لواء نصر مذهب | في رأس رمح عقدا[1]

وهكذا كان شعراء مصر في هذا العصر يقضون وقتا طيبا بين أماكن الزيارة في صحبة بعضهم بعضا، ولا ينسون وهم في هذه الزيارات فنهم الذي أحبوه فكانوا يقرضون الشعر في موضوعات مختلفة وكل منهم يريد أن يبرز ويتفوق على زملائه. فكانت مباراتهم في الشعر على هذا النحو سببا في أن يجهد الشاعر نفسه لإجادة فنه وإتقان شعره بأن يحاول اختراع شيء من المعاني الجديدة أو الصور المبتكرة أو إجادة تشبيهاته وكناياته إلى غير ذلك من ألوان المحسنات البيانية والبديعية.

وكثرت المكاتبات الشعرية بين هؤلاء الشعراء الأصدقاء مثل تلك التي كانت بين ابن سناء الملك والقاضي الفاضل التي تحدثنا عن شيء منها في حديثنا عنهما، ومثل التي كانت بين ابن مطروح والبهاء زهير وسنتحدث عن ذلك في فصل قادم أو بين ابن مطروح ومهذب الدين بن الخيمي فقد كتب له ابن المطروح وكان ابن الخيمي على ديوان المواريث:

لمهيار مصر أسجل الفضل عندنا | وأبطلت الدعوى لمهيار فارس
فبينهما في النظم والنثر إن هما | سبرتهما ما بين ماش وفارس
فتى نظر السلطان فيه مخايل الدرا | ية والديوان نظرة فارس
فولاه أموال المواريث حاميا | به سربها من كل أجرأ فارس
كأن ابن مطروح أقام ابن أحمد | وأحياه من بعد البلى وابن فارس
وكل أمير في البلاغة عنده | غلام فلا تبعث سواه بفارس

---

(1) ابن ظافر: بدائع البداية ص ١٤٧ وما بعدها.

فكتب إليه مهذب الدين بن الخيمى:

أباعـثـهـا مـلء الـمـسامع حـكـمـة ... قـوافـى تـجلـى كـالـعـذارى الـعرائـس
شـوارد عـن أوهـام قـوم شـوارد ... أوانـس تـزرى بـالـحـسان الأوانـس
مـهذبـة جـاءت لـنـا مـن مـهـذب ... تـذل لـه كـل الـقـوافـى الـشوامـس
تـعز عـلى مـن رامـهـا غـيـر ربـهـا ... وتـطـغـى فـمـا تـعـطـى قـيـادا لـلامـس
سـداسـيـة لـو قـال آتـى بـسـابـع ... لـهـا ابـن سـلـيـمـان أتـى بعد خـامـس
وحاولت منها الراء والسين فاحتمت ... عـلـى بـحـام ذى اقـتـدار وحـابـس
حـمـيت حـمـاهـا ثـم أغـلـقت بـابـهـا ... وحـصـلـت مـنـهـا كـل بـيـت بـفـارس[1]

من لطائف إخوانيات ابن مطروح ما كتبه ردا على خطاب صديق له:

وافـى كـتـابـك بـعـد فـتـرةْ ... فـنـفـى الـمـساءة بـالـمـسـرةْ
وفـضـضـتـه فـلـثـمـتـه ... لـمـا غـدا فـى الـحـسـن نـدرةْ
فـطـربـت حـيـن قـرأتـه ... وسـكـرت لـكـن ألـف سـكـرةْ
فـحـسـبـت أن الـطـرس مـنـ ... ـه زجـاجـة والـلـفـظ خـمـرةْ[2]

وانظر إلى قول ابن النبيه وهو يستدعى بعض أصحابه إلى مجلس أنس

نـحـن فـى روضـة وزهـر ونـهـر ... ومـدام كـالـشـمـس مـن كـف بـدر
مـغـن قـد راسـلـتـه الـشـحـا ... رير فـأغـنـت عـن جـس عـود وزمـر
أنـت روح ونـحـن جـسـم فـإن غـ ... ـبـت فـإن الـقـلـوب تـكـوى بـجـمـر
إن كـفـا إلـيـك قـد كـتـبـتـهـا ... تـتـهـادى مـا بـيـن سـكـر وشـكـر[3]

وفى نفس هذا الموضوع يقول البهاء زهير:

غـبـت عـنـى فـمـا الـخـبـر ... مـا كـذا بـيـنـنـا اشـتـهـر
أنـا مـالـى عـلـى الـجـفـا ... لا ولا الـبـعـد مـصـطـبـر
لا تـلـم فـيـك عـاشـقـا ... رام صـبـرا فـمـا قـدر

---

(١) ديوان ابن مطروح (طبع مطبعة الجواب).
(٢) نفس المرجع السابق.
(٣) ديوان ابن النبيه ص ٨٩.

أنـــكـــرت مـــقـــلـــتـــى الـــكـــرى   حـــيـــن عـــرفـــتـــهـــا الـــســـهـــر
فـــعـــســـى مـــنـــك نـــظـــرة   ربـــمـــا أقـــنـــع الـــنـــظـــر
غـــنـــيـــت عـــيـــن مـــن يـــرا   ك عـــن الـــشـــمـــس والـــقـــمـــر
أيـــهـــا الـــمـــعـــرض الـــذى   لا رســـــول ولا خـــبـــر
وجـــرى مـــنـــه مـــا جـــرى   لـــيـــتـــه جـــاء واعـــتـــذر
كـــل ذنـــب كـــرامـــة   لـــمـــحـــيـــاك مـــغـــتـــفـــر
أنـــا فـــى مـــجـــلـــس يـــرو   قـــك مـــرأى ومـــخـــتـــبـــر
بـــيـــن شـــاد وشـــادن   نـــزهـــة الـــســـمـــع والـــبـــصـــر
وصـــحـــاب بـــذكـــرهـــم   تـــفـــخـــر الـــكـــتـــب والـــســـيـــر
وإذا مـــا تـــفـــاوضـــوا   فـــيـــهـــم الـــزهـــر والـــزهـــر
فـــتـــفـــضـــل فـــيـــومـــنـــا   بـــك إن زرتـــنـــا أغـــر
فـــســـرور تـــغـــيـــب عـــنـــه   وإن جـــل مـــحـــتـــقـــر(١)

القصة

وفى هذا العصر الذى انتشر فيه فن «خيال الظل»(٢) ووضعت له قصص يلقيها الخيال ويعرضها بشخوص من الجلد، ويؤلفها صناع البلاليق بالعامية، نجد بعض الشعراء يروون قصة كاملة فى قصيدة يحكون فيها حادثة بعينها ويلتزمون فيها وحدة الموضوع فى كل القصيدة وتسلسل هذا الموضوع وتطوره، فإذا نحن أمام قصة من الشعر، فيها جميع عناصر القصة القصيرة، فهناك الفكرة وتطورها إلى العقدة ثم حلها، وهناك معالم الشخصية وخصائصها الخلقية وما يتبع ذلك من حالات نفسية، أضف إلى ذلك كله التناول الفنى للحادثة التى يعرضها الشاعر، فكل هذه الأصول الفنية للقصة نجدها فى الشعر المصرى فى العصر الأيوبى، فهاهو الشاعر البهاء زهير يروى قصة تاجر وفد إلى مصر، وكيف خرج منها فهو يقول على لسان هذا التاجر.

دخـــلـــت مـــصـــر غـــنـــيـــا   ولـــيـــس حـــالـــى بـــخـــافـــى
عـــشـــرون حـــمـــل حـــريـــر   ومـــثـــل ذاك نـــصـــافـــى
وجـــمـــلـــة مـــن لآل   وجـــوهـــر شـــفـــاف

---

(١) ديوان البهاء زهير ص ٨٥.

(٢) راجع ما كتبناه عن هذا الفن فى سلسلة مقالات بمجلة الإذاعة المصرية سنة ١٩٥٥.

ولـــي مـــمـــالـــيـــك خـــود | مـــن الـــمـــلاح الـــنـــظـــاف
فـــرحُـــتُ أبـــســـط كـــفـــي | وبـــالـــجـــزيـــل أكـــافـــي
وصـــرت أجـــمـــع شـــمـــلـــي | بـــســـالـــف وسُـــلاف
ولا أزال أؤاخـــــــي | ولا أزال أصـــــافـــي
وصـــار لـــي حُـــرَفـــاء | كـــانـــوا تـــمـــام حـــرافـــي
وكـــل يـــوم خـــوان | مـــن الـــجـــدى والـــخـــراف
فـــبـــعـــت كـــل ثـــمـــيـــن | مـــعـــي مـــن الأصـــنـــاف
اســـتـــهـــلـــك الـــبـــيـــع حـــتـــي | طـــراحـــتـــي ولـــحـــافـــي
صـــرفـــت ذاك جـــمـــيـــعـــا | بـــمـــصـــر قـــبـــل انـــصـــرافـــي
وصـــرت فـــيـــهـــا فـــقـــيـــرا | مـــن ثـــروتـــي وعـــفـــافـــي
وذا خـــروجـــي مـــنـــهـــا | جـــيـــعـــان عـــريـــان حـــافـــي[1]

فالشـاعر وهو يروى القصـة لم يبتعد عن موضوعها فهو يصف حالـة بطل القصة منذ دخل مصر ومعه هذه الأحمال من ألوان الأقمشة والجواهر والمماليك، جاء بها يبتغى الغنى والكسب، ولكنه كان مسرفا أشد الإسراف، إذ اصطنع بعض الأصدقاء، وأخذ ينفق عليهم عن سعة فى ولائم يومية حتى أتت على كل أمواله، واضطر إلى أن يبيع طراحته ولحافه، وخرج من مصر وهو «جيعان عريان حافى» فالشاعر هنا قصاص لا شك فى ذلك، وقد نجح فـى عرضـه للحادثة على هذا النحو الذى رأيناه، كما نجح فى تصوير الحالات النفسـية التى تقلب فيها التاجر فى أوقات يسره وفى أوقات عسره، ففى قدومه إلى مصر أخذ يزهو بما معه من بضائع، كما كان يفخر بما ينفقه على إخوانه، وأخيرا صور الشاعر حالته وقد أصبح لا يملك شروى نقير، كل هذه الصور النفسية رسمها الشاعر فى بساطة ودقة.

وهاهو الشاعر ابن مطروح يقص علينا قصة حبيبته التى أخذت تشكو هواها إلى دايتها، وكيـف تريد لقـاءه مهما وجدت فى ذلك من أهوال، ولكنها تخشـى أباها الذى لو عرف قصتها لقتلها، فالشاعر رسم ذلك كله فى هذه المقطوعة فهو يقول:

ســمــعــتــهــا تــشــتــكــي لــدايــتــهــا | شكوى تــذيــب الــقــلــوب والــمــهــجــا
تــقــول: يــا دايــتــي، بــلــيــت بــه | ومــا أرى مــن هــواه لــي فــرجــا

(١) ديوان البهاء زهير ص ١٣٣.

ومثل ما بي به ولا عجب هوى بقلبى وقلبه امتزجا
فهل سبيل إلى زيارته ولو ركبت البحار واللججا
وإن درى والدى بقصتنا أراق يا دايتى دمى حرجا
فرحت مما سمعت مبتهجا كشارب الراح راح مبتهجا

فهذه المقطوعة القصيرة تعطينا قصة هذه الفتاة الوالهة بحبه، وترسم لنا نفسيتها القلقة المضطربة بين رغبتها الملحة فى زيارة حبيبها وبين خوفها من أبيها، ثم نفسية الشاعر المحبوب الذى ابتهج عند سماع الحوار بين حبيبته ودايتها، وتأكده من شعورها نحوه، أليست هذه المقطوعة القصيرة قصة غرام نفسية؟

ولابن مطروح عدة قصص أخرى من هذا اللون الذى نراه فى المقطوعة السابقة، وإذن فنستطيع أن نقول إن فن القصة ظهر فى الشعر المصرى، كما ظهر فى البلاليق المصرية وفى النثر الفنى، وسنرى فى حديثنا عن عصر المماليك تطور القصة المصرية فى الشعر.

ابن مطروح ٥٩٢ - ٦٤٩ هـ

أبو الحسن يحيى بن عيسى بن ابراهيم بن الحسين، لقب بجمال الدين، وعرف بابن مطروح، ولد بأسيوط فى ٨ رجب سنة ٥٩٢ هجرية، وفيها نشأ، ولا ندرى شيئا عن نشأته ولا عن أساتذته، فالمؤرخون أغفلوا الحديث عن هذه الناحية، كما أن ابن مطروح لم يشر إليها فى أشعاره، وكل الذى نعرفه أنه انتقل من أسيوط إلى مدينة قوص لسبب لم يذكره المؤرخون أيضا، ومدينة قوص فى ذلك العصر كانت من أهم المراكز الثقافية والتجارية فى مصر، إذ كانت المركز الرئيسى لقوافل الحج والتجارة بين مصر وبلاد الشرق ولا سيما بعد استيلاء الصليبيين على طريق فلسطين، فحول طريق القوافل إلى مدينة قوص ومنها إلى عيذاب على البحر الأحمر، فبفضل هذه الحالة السياسية التى كانت تسود الشرق الأوسط نمت المدينة وازدهرت وكثر فيها العلماء والفقهاء، وتعددت المدارس، ففى هذه المدينة العامرة بالنشاط الثقافى والاقتصادى عاش ابن مطروح، وتشاء الظروف أن يتقابل هناك بشاب من الشباب الوافدين على المدينة، واتخذوها دار إقامة، وهو البهاء زهير، ولا نستطيع أن نؤكد متى وكيف تمت هذه الصداقة التى استمرت طوال حياتيهما ويخيل إلى أن ابن مطروح أتم دراسته فى قوص وفيها بدأ يصنع الشعر، فمدائحه لمجد الدين بن اللمطى حاكم قوص، وتقلبه مع هذا الأمير بين الرضا والغضب تدل على أنه كان صغير السن، وأنه كان مبتدئا فى مدح الأمراء والحكام، ففى إحدى قصائده يمدح فيها والى قوص يقول بعد المقدمة الغزلية:

قالت سل الأيام قلت أنا امرؤ
تأبى السؤال خلائقي وتخلقي
وإذا سألت سألت ربا راحما
قطعت يد مدت إلى مسترزق
لأكلفن الجرد مالم تستطع
صبرا عليه يعملات الأينق
من كل ضامرة إذا سرت الصبا
في إثرها عادت بسعي مخفق
إن لم أنل بالمغرب الأقصى المنى
حاولت ذاك ولو بأقصى المشرق
لا فزت بالمأمول من طلب العلا
وبقرب مجد الدين إن لم أصدق
وافى بأسعد ليلة ودليله
إن الصعيد بيمن طلعته سقى
لله آية لك لم تكن
لسواك ممن قد مضى أو من بقى
أي الملوك سواك يقدم جيشه
جيشان من رعد وغيث مغدق
فليهنني والأولياء قدومه
في غيظ كل منافق متملق
كم قلت للأعداء روموا سلمه
وحذار من ذا الأفعوان المطرق[1]

يظهر من هذه الأبيات أن الشاعر لم يكن قد اكتمل في فنه، بل هي محاولة - إن صح هذا التعبير - لمدح الأمير، فمعانيه تافهة، وأسلوبه به ضعف يدل على أنه لا يزال مبتدئا في هذا الفن بالرغم من أن هذه الأبيات تشعرنا بأنه يحاول تقليد القدماء، والبيت الأول والثاني في هذه المقطوعة يدلان على أنه لا يزال صغير السن لم يجرب بعد مخالطة الأمراء أو مدحهم، فهما بيتان لا يقولهما إلا شاب حدث لم تصقله الأيام بعد فلم يعرف كيف يخاطب المدوحين، ويظهر أن صغر سنه قد أوقعه مع الأمير في بعض المآزق بحيث اضطر الأمير إلى تهديده، واضطر هذا الشاب إلى التخاذل والتراجع عن عنجهيته التي رأيناها في البيتين السابقين فإذا به يبكي ويترامى على أعتاب الأمير يطلب منه العفو والإقالة، فهو يقول:

لك الله إن العفو أقرب للتقوى
ومثلك أولى مثلى الصفح والعفوا
أقلني ما قد كان مني جهالة
أقالك رب يعلم السر والنجوى
وها أنا من ذنبي الذي كان تائب
ومن تاب تمحو الذنوب توبته محوا
من الآن فاسعي في تدارك ما مضى
فأبى الذى تأبى واهوى الذى تهوى
عسى نظرة لي باصطناعك منعما
فتجبر لي كسرا وتكشف لي بلوى
فإني في بؤس بسخطك كارب
فلله من ذا البؤس ثم لك الشكوى

(١) ديوان ابن مطروح: طبع الجوائب ص ١٩٩.

فـهـذا فـؤادى مـا يـقـر وجـيـبـه ... وهذى جفونى ما غـفت ساعة غـفـوا
وقد نـالـنـى من سخطك الـمر ما كـفـى ... وإنى لأرجـو الآن منـك الـرضى الحـلـوا
فـسـخـطـك نـار لا أطـيـق اصـطـلاءهـا ... ومـنـك الـرضى لازلـت فى جنة الـمأوى
فـإن تـولـنـى عـفـوا فـإنـك أهـلـه ... ولا بـدع أن عـاقـبـت مـثـلـى ولا غـروا
فـلازلـت تـولـنى الـعـفـو عن كل هـفـوة ... ترى المن أحلى مـن جـنـى المن والسلوى[1]

ولا نـدرى عن حياته فى قوص شـيئا، ولكن يخيـل إلى أن الأمير ابن المللطى عينه فى ديوانـه، ثـم نرى ابن مطروح بعد ذلك ينتقل إلى القاهرة، ويتصل بالسـلطان الملك الصالح حوالى سنة ٦٢٦ هـ.

وكان الشاعر إذ ذاك فى الخامسة والثلاثين من عمره وكان الملك الصالح فى ذلك الوقت ينـوب عن أبيه الملك الكامل فى حكم مصر، وفى هذه السـنة نـاب الملك الصالح عن أبيه فى حكم بلاد الجزيرة فاصطحب الشـاعر معه، ومنذ اتصل الشـاعر بالملك الصالح فى هذه الأقاليم بالمشرق اضطر إلى أن يخوض مع مخدومه المعارك الحربية والسياسية لتوسيع رقعة ممتلكات الملك الكامل بحيث أصبح الملك الصالح سيد هذه البلاد جميعا ولكن بعد أن توفى الملك الكامل ٦٣٥ هـ بدأت سلسلة من المشاحنات والخصومات بين ملوك بنى أيوب؛ كان المـلـك الصالح من ناحية، وأخيه العادل بن الكامـل وعمه الصالح اسماعيل وابن عمه الملك الناصر داود بن الأشرف من ناحية أخرى، وكان الخلاف شديدا قاسيا بينهم كما حدثنا به المؤرخون وأطنبوا فيه، فطورا كان يتفق الملك الصالح اسماعيل مع الملك الناصر والملك العادل ضد الصالح أيوب ويهزم الملك الصالح أيوب ويـسـجن فى الكرك، ثم يتفق مع الملك الناصر داود ضد العادل والصالح اسماعيل فيطلق سـراحه ويتمكن من امتلاك مصر سـنة ٦٣٧ هـ ومرة ثالثة يعترف الصالح اسماعيل بملك الصالح أيوب لمصر والشام ويحاربان الناصر داود، ثم يعود هؤلاء الملوك مرة أخرى لمحاربة الصالح أيوب بمساعدة الصليبيين... وهكذا كانت أحوال هؤلاء الملوك مضطربة أشد الاضطراب الأمر الذى أدى بالخليفة العباسى فى بغداد إلى أن يبعث بمحى الدين بن الجوزى رسولا من قبله إليهم يدعوهم إلى نبذ الخلاف وإلى وحدة العالم الإسـلامى كما كانت فى عهد صلاح الدين ولا سـيما أن خطر التتار كان يدق أبواب البلاد الإسـلامية. فكان ابن مطروح فى وسـط هذه المعمعة لأنه كان مشرفا على جيش الملك الصالح أيوب، فلما وفد ابن الجوزى رسـول الخليفة العباسـى صحبه ابن مطروح إلى مصر

(١) نفس المرجع السابق ص ٢٠١.

سـنة ٦٣٧ هـ غير أنه لم يمكث طويلا في مصر لأنه غادرها مع ابن الجوزى إلى الشـام ثم إلى القدس لمقابلة الملك الناصر داود الذى كان قد اسـتولى عليها فمدحه ابن مطروح بقصيدة جاء فيها:

المسجد الأقصى له عادة ... سارت فصارت مثلا سائرا
إذا غدا للكفر مستوطنا ... أن يبعث الله له ناصرا
فناصر طهره أولا ... وناصر طهره آخرا[1]

ومدحه بمقطوعة أخرى يقول فيها:

ثلاثة ليس لهم رابع ... عليهم معتمد الجود
الغيث والبحر وعززهما ... بالملك الناصر داود

وفي سـنة ٦٣٩ هـ عاد ابن مطروح إلى مصر فجعله السـلطان ناظرا على خزائنه ومازال صاحب حظوة لديه إلى أن تملك الملك الصالح أيوب دمشق سنة ٦٤٣ هـ إذ وجهه الملك على رأس حملة إلى حمص ولكن جاءت الأنباء بعزم الصليبيين على غزو مصر فاسـتدعى جيش حمـص وعـاد معه ابن مطروح إلى مصر وظل في الخدمة بالرغم من غضب الملك عليه لأمور نسبت إليه فاضطر ابن مطروح إلى أن يبعث إلى الملك يعتذر ويعاتب في الوقت نفسه:

من مبلغ عني المماليك الأروعا ... عن عبده يحيى مقالا مقنعا
يابن الملوك الأكرمين ومن لهم ... همم بها سدوا الفضاء الأوسعا
وإذا النجوم سعت لتدرك مجدهم ... رجعت ولم تبلغ نداهم ضلعا
أيجوز أن أبقى ببابك ظامئا ... ونداك قد وسع الخلائق أجمعا
ولو ادعيت بأن مالك ناصح ... مثلي شهدت بصدق هذا المدعى
ومع النصيحة فالتخلق بالوفا ... خلق خلقت عليه لا متطبعا
ومحبة لدمي ولحمي مازجت ... وهوى حنيت عليه مني الأضلعا
ولطالما جربتني فوجدتني ... أجدى من الملأ الكثير وأنفعا
وأسد آراء وأثقب فكرة ... وأشد عارضة وألطف موقعا
ولكم ليال بت في ديجورها ... لله أدعو خاشعا متضرعا

(١) ديوان ابن مطروح ص ١٨٢.

حتى رأيتك فوق كسرى رفعة ورأيت دونك في الجلالة تبعا
فعلام بعد الاصطفاء نبذتني نبذ النواة بقول واش قد سعى
وسمعت في حقي كلام معاشر أقصى مناهم أن أبيت مضيعا
حق العزول بأن يقول فيفترى لكن أجلك أن يقول فتسمعا
إن كنت خنتك ظاهرا أو باطنا فخسرت دنيائي وآخرتي معا
أأودكم من عنفوان سبيبتي وأحول إذ عهد الشبيبة ودّعا(١)

وكان مع الملك في المنصورة أثناء الحملة الصليبية على دمياط. ولكن توفي الملك الصالح في ١٥ شعبان سنة ٦٤٧ هـ فترك ابن مطروح خدمة الدواوين مكرها وعاش في منزله بعيدا عن أي عمل لمدة عامين ساءت فيهما صحته، وضعف بصره حتى كاد يفقده وساءت حالته المالية. وظل كذلك إلى أن مات في شعبان سنة ٦٤٩ هـ. وشعر ابن مطروح ضعيف في جملته ويظهر أن حياته السياسية قد غلبت عليه فلم يتفرغ لفن الشعر بجوده ويتقنه كما كان يفعل مع غيره. ومع ذلك كله فله بعض لمحات نستطيع أن نثبت فنيته فيها فمثلا في قوله متغزلا:

إن قسته بالبدر ما أنصفته أو بالغزال وجدته مظلوما
هذا نبي الحسن جاء فكلكم صلوا عليه وسلموا تسليما(٢)

ومثل هذه المقطوعة الغزلية التي تحدثنا عنها سابقا والتي مطلعها

هزوا الخدود وأرهفوا سمر القنا واستبدلوا بدل السيوف الأعينا

ولا ندري لماذا لم ينشد ابن مطروح شعرا في جمال دمشق وغوطتها كما فعل غيره من الشعراء الذين أشادوا بها ولكن الظاهر من حياة ابن مطروح أنه لم يكن على وفاق مع الدمشقيين، فلم يتصل بشعرائهم وأدبائهم، ولم يحدثنا عنهم في ديوانه إلا في بيتين هما:

تخذتم السبت يوم عيد وهذه سنة اليهود
وكان يكفيكم ضلالا شربكم الماء من يزيد(٣)

(١) ديوان ابن مطروح ص ١٨٤.
(٢) الديوان ص ٢٠٤.
(٣) ابن مطروح ص ٢٠٥.

فالشاعر يعرض بهم وبتاريخهم في مناصرة الأمويين وخاصة يزيد بن معاوية. ولا شيء غير ذلك عن دمشق التي كان وزيرا فيها، كذلك نقول عن الطبيعة في مصر، فهو لم يتحدث عنها بشيء وكأن جمال الطبيعة لم تؤثر فيه.

من ناحية أخرى كان الشاعر في بعض مقطوعاته يميل إلى ناحية الزهد، وكأنه تأثر بالصوفية الذين كثروا في عهده، فهو يتوسل إلى الله سبحانه وتعالى في خشية ووجل، فمن توسلاته إبان محنته الأخيرة يقول:

يا من علا في ملكه فاقترب ... ومن بدا من نوره فاحتجب
ومن هو القصد لأهل النهى ... والمطلب الأسنى وكل الأرب
عودتني الأنس فلا تنسني ... وهبني الرحمة فيما تهب
ونفحة من نفحات الرضى ... تطفيء عني لفحات الغضب
وقد قدمت اليوم يا سيدي ... عليك ضيفا آخذا بالحسب
معتمدا منك على راحم ... مستمسكا منك بأوفى سبب[1]

أو قوله:

يا من لديه الجميل موجود ... وكل خير لديه معهود
وهو على كل شدة ورخا ... بألسن الخلق وهو محمود
امنن على عبدك الفقير بما ... ينعشه اليوم فهو مجهود
وقد مددنا إليك أيدينا ... لا خيبت والكريم مقصود[2]

ويقول ابن خلكان وكانت خلاله حميدة، جمع بين الفضل والمروءة، والأخلاق المرضية، وكان بيني وبينه مودة أكيدة، ومكاتبات في الغيبة، ومجالسات في الحضرة، تجرى فيها مذكرات أدبية لطيفة[3]. ومدحه الشاعر أبو الحسين الجزار بقصيدة منها:

هو ذا الربع ولي نفس مشوقة ... فاحبس الركب عسى أقضي حقوقه
فقبيح بي في شرع الهوى ... بعد ذاك البر أن أرضى عقوقه
لست أنسى فيه ليلات مضت ... مع من أهوى وساعات أنيقه

(١) ديوان ابن مطروح ص ٢١٢.

(٢) نفس المرجع ص ٢١٢.

(٣) ابن خلكان. وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٥٨.

ولـئـن أضحى مـجـازا بـعـدهـم — فـغـرامـى فـيـه مـازال حـقـيـقـه
يا صـديـقى والـكـريـم الـحـر فـى — مـثـل هـذا الـوقـت لا يـنـسـى صـديـقـه
ضـع يـدا مـنـك عـلـى قـلـبى عـسى — أن تـهـدى بـيـن جـنـبـى خـفـوقـه
فـاض دمـعـى مـذ رأى ربـع الـهـوى — ولـكـم فـاض وقـد شـام بـروقـه
تـعـد الـلـؤلـؤ مـن أدمـعـه — فـغـدا يـنـثـر فـى الـتـرب عـقـيـقـه
قـف مـعـى واسـتـوقـف الـركـب فـإن — لـم يـقـف فـاتـركـه يـمـضـى وطـريـقـه
فـهـى أرض قـلـمـا يـلـحـقـهـا — آمـل والـركـب لـم أعـدم لـحـوقـه
طـالـمـا اسـتـجـلـيـت فى أرجـائـهـا — مـن يـتـيـه الـبـدر إذ يدعى شـقـيـقـه
يـفـضـح الـورد احـمـرارا خـده — وتـود الـخـمـر لـو تـشـبـه ريـقـه
فـيـه الـحـسـن خـلـيـق لـم يـزل — والـمـعـانى بـابـن مـطـروح خـلـيـقـه[1]

***

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٦٠.